غادة السمان

بيروت ٧٥



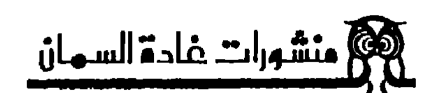
بيروت ٧٥

□ الأسماء على الغلاف الأخير بالترتيب الأبجدي.

غادة السمان



رواية



منشورات غادة السمان

بيروت ـ لبنان

ص ب : ١١١٨١٣

تلفون ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى : أذار (مارس) ١٩٧٥
الطبعة الثانية : نيسان (إبريل) ١٩٧٧
الطبعة الثالثة : شباط (فبراير) ١٩٧٩
الطبعة الرابعة : حزيران (يونيو) ١٩٨٣
الطبعة الخامسة : أيلول (سبتمبر) ١٩٨٧
الطبعة السادسة : آب (اغسطس) ١٩٩٣

الشمس شرسة وملتهبة .

وكل ما في ذلك الشارع الدمشقي كان ينزف عرقاً ، ويلهث . الأبنية والأرصفة كانت ترتجف بالحمى وترتعش عبر أبخرة الحر المتصاعدة من كل شيء .. حتى الأصوات كانت شديدة السمرة والاختناق .. ولوهلة ، خيل إلى فرح ان الشارع بأكمله سيغمى عليه . الأشجار ، السيارات ، المارة ، الباعة ، والرجل الواقف أمام باب الكراج وهو ينادي بصوت مذبـــوح :

« بيروت . بيروت . »

ومرت بباب الكراج حلوة صغيرة . وخيّل إلى فرح ان خدّيها توهجا لسماع أسم بيروت ، أم تراه الحر ؟ **(كلهن وكلهم يحلم ببيروت . لست وحـــدي ، ولكنني وحدي ذاهـــب لاقتحامها) ..**

« بيروت . بيروت » ... ينادي الرجل ذو الكرش المدلوق كأنما أغمي على كرشه من الحر . « بيروت . بيروت » ... ينغّم الاسم كما لو كان يقدم راقصة للجمهور في « الكباريه » .

تأتي صبية حلوة تودعها أمها . الأم محجبة وتبدو على ثيابها رقة الحال ، والفتاة ترتدي ثوباً قصيراً جداً يكشف عن ساقين شديدتي البياض والامتلاء .. يفكر فرح : **(ها هي راكبة أخرى. ثلاثة ركاب آخرون وننطلق إلى بيروت. لا استطيع مزيداً من الانتظار)** . وأحس بجسده يرتعش لأسم بيروت كما لو التصق به الأسم جسداً لامرأة عارية ..

أخيراً امتلأت السيارة فجأة ...

احتلت المقعد الخلفي نسوة ثلاث محجبات يغطيهن السواد من الرأس حتى أخمص القدمين ...

وها هو يجلس بجانب السائق ، والصبية إلى جانبه في المقعد الملاصق للنافذة ، والأم تبكي وهي تودعها . وبدت الفتاة ضيقة الصدر بأمها ، ترسل نظراتها إلى السائق كي يسارع للانطلاق بسيارته . تذكر فرح أمه . إنه يكره الوداع . حين تقال الكلمات الثقيلة اللزجة مثل اللبان المبصوق . ثم إن أمه ما كانت لتبكي . كانت ستغطي وجهها بيديها الخشنتين . الملوثتين دوماً بتراب الحقل . كما تفعل دائماً حينما تتعذب ، ثم تصعد أنّة خافتة ولكن بلا دموع ... وهو يتشاءم كثيراً حين يسمعها تئن ... ربما لذلك هرب بلا وداع ! ولكن رسالة التوصية من أبيه إلى نيشان ، قريبه الثري في بيروت ، ستساعده وتحميه . تراه أضاعها ؟ للمرة العشرين يتحسسها في جيبه . يتذكر فجأة أنه نسي احضار ساعة المنبّه معه . ونسي إقفال خزانته . هل نسي أم لا ؟

لا يدري . ليس واثقاً . هو دوماً هكذا ، يتأخر أحياناً عن الوصول إلى عمله ، لأنه يتذكر في منتصف الطريق أنه نسي اقفال خزانته .. ويعود طوال الطريق من دمشق إلى دوما لاقفالها ، ويكتشف انه كان قد فعل ذلك ! .. دوماً يتوهم انه لم يقفلها ، وحين يعود يكتشف انه كان قد أقفلها بالمفتاح مرتين . ثم لماذا هذا الحرص على اقفالها وهو يعرف جيداً ان لا شيء فيها يستحق اهتمام أحد ؟ لايدري . انها خزانته وكفى... على أية حال . الذنب ليس ذنبه أو ذنب الخزانة ، أنه لا يصلح للعمل كموظف .. في بيروت سيفعل ما يشاء ...

وفكر بغيظ : **(آه الشمس ! كم هي حارة ! أكاد أختنق . والمدموزيل إلى جانبي أغلقت النافذة خوفاً على شعرها المصفف ، وليس في الجو نسمة ، ما أسمج النساء !) ..**

وفكرت الصبية الجالسة إلى جانبه . **(آه الشمس ! كم هي حارة وممتعة ! انها تزيدني التهاباً وشوقاً للرحيل .. أحب لسعها فوق وجهي) ..** بغبطة تفكر :

(دمشق . دمشق . وداعاً دمشق) ...

والسيارة تغادر المدينة ، وتمضي في طريق الربوة والهامة . تخلف الصخرة الشاهقة على مدخل دمشق . والتي نحت عليها عاشق ما « اذكريني دائماً » ..
(لعل أسم العاشق كان : دمشق) .. لكنها ستنسى ! ..

يقرأ فرح العبارة ويعاوده الغم . يسري في أوصاله تعب غامض . يدير زر الراديو وهو يقول للسائق : هل تسمح ؟ لا يرد السائق ذو الوجه الغامض الأسى .

صوت المذيع وهو يقرأ الأخبار يملأ السيارة . لا . لا يملأها ... هنالك بكاء خافت ... النسوة الثلاث في المقعد الخلفي يبكين .

تفكر الفتاة : **(لعلهن ذاهبات إلى مأتم قريب لهن قضى نحبه في بيروت)** .

يفكر فرح **(لماذا ينتحبن هكذا ؟ تراني ذاهباً إلى موتي وعرافات القدر يشيعنني ويبكينني ؟)** .. يلتفت اليهن ويحاول عبثاً ان يتبين وجوههن . يخيل اليه ان لا وجوه تحت الحجاب الأسود . مجرد أفواه منفتحة داخل جمجمة لا يكسوها لحم ولا جلد ، ولا عيون لها ، وإنما حفر اضافية ينبعث منها النواح الخافت ببطء ، كما يتصاعد الغبار والأنين من فوهات منجم انهار في الليلة الفائتة ...

والسيارة تخلف شرنقة الخضرة وتدخل في الصحراء .. وتختفي دمشق تماماً ...

يفكر فرح : **(لن أعود الا ثرياً ومشهوراً) ...**
تحلم ياسمينة : **(لن أعود الا ثرية ومشهورة) ...**

* * *

تمتد يدها إلى المذياع وتحرك أبرته تخلصاً من ثرثرة المذيع . فتنطلق منه موسيقى حالمة وهي تقول للسائق : تسمح ؟

السائق المأساوي لا يرد .

الموسيقى عذبة وحنون ...

تشعر ياسمينة بأنها غابة ، والموسيقى رياح تتخللها ، وتهز أشجارها وأغصانها وتطلق صياح عصافيرها وتوقظ ثعابينها .. الموسيقى تحرك فيها دائماً مخزوناً خفياً من العواطف الغامضة . تشعر بأنها عاشقة ... لا تحب شخصاً بالذات ولكنها دوماً في حالة عشق ، ودوماً على استعداد لأن تحب وتلتهب وتتعذب وتنسى دون أن يدري الحبيب عنها شيئاً .... السينما تفعل بها الشيء ذاته . دوماً تتعاطف مع البطلة العاشقة ، وحين تخرج من السينما تجد نفسها وهي تقلد حركاتها وتسريحاتها **(ما أشد وسامة الشاب الجالس إلى جانبي . ولكنه يبدو كئيباً بطريقة ما)** .. تنعطف السيارة فجأة . يلتصق جسدها به . عظم حوضها بالذات يمسه عند الخاصرة . يتأملها جيداً . بيضاء جداً ، ممتلئة جداً ، سوداء العينين جداً ، كاكثر الدمشقيات . **(تراها تلميذة في بيروت ؟ انها أكبر من ذلك . لعلها في الخامسة والعشرين . تراها ذاهبة لتشتري ثيابها كالبورجوازيات الدمشقيات ؟ لكن أمها تبدو رقيقة الحال . تراها مثلي تفتش عن المجد ؟)**

تعالى نواح نساء المقعد الخلفي واغتم فجأة **(لو أعود . لو نعود معاً أنا وهذه المرأة البيضاء السمينة . اتزوجها ؟ ربما . نقطن في بيتي بدوما . أتابع الذهاب إلى مركز عملي بدمشق كل يوم كل يوم حتى أموت . ستسمن . ستفوح منها رائحة الطبخ والشتائم . سأصير مديراً لبقية الموظفين وأصاب بالسل من تنقلي شتاء بين دوما ودمشق. بالروماتيزم أيضاً . سنشيخ وفراشنا الضجر والقناعة وصراخ الأولاد. لا... لن ...)** وابتعد عنها حتى كاد يلتصق بالسائق.. لا . لا يريد امرأة ولا عودة . يريد بيروت . يحس بحاجة إلى الحديث عنها. . يسأل السائق عن الطقس هناك مستدرجاً اياه للحوار عن أسرار بيروت ومفاتنها . السائق لا يرد . السائق أخرس . له وجه يذكر بسائقي عربات دفن الموتى . كيف لم يلحظ من قبل أن هذه السيارة الهرمة السوداء تشبه سيارات دفن الموتى ؟.. التفت إلى الندابات اللواتي كن يتناوبن النواح واختنق صدره . يقرر ان يحاور الفتاة التي هي « برسم الزواج »

إلى جانبه . لا تبــدو مهتمة به . عيناها عــلى الأفق ربما بحثاً عن بيروت .
(تعبت من العمل استاذة في مدارس الراهبات . سئمت . سئمت . سئمت . الأيام تمضي ثقيلة كجسد مخدر على طاولة العمليات . وأنا لا أفعل شيئاً سوى التدريس والضجر وكتابة الشعر . بيروت تنتظرني ، بكل بريقها ، بكــل إمكانات الحرية فيها، بكل إمكانات الحب فيها، بكل إمكانات الشهرة فيها ، بكل إمكانات نشر قصائدي في صحفها ، وقلبي طــائر جائع للتحليق . لن أرى راهبة بعد اليوم . أوف ! . لهذا الشاب إلى جانبي وجود مزعج . انه يبدو كقروي متلهف للحديث عن نفسه ، وسيم وفج) ..

* * *

عند الحدود تأكد لفرح ان السائق أخرس . هبط الجميع لانجاز معاملاتهم. عادت ياسمينة وفرح ، ولكن الندابات الثلاث لم يعدن . ذهب السائق بحثاً عنهن ولم يتبادلا أية كلمة خلال غيابه . كل منهما مشغول بنفسه وأحلامه ، ثم انها لا تحب الرجال الفقراء وهو رقيق الحال .

عاد السائق الأخرس تفوح من صمته كهارب الشتائم . وتحركت السيارة من دون الندابات المختفيات. يفكر فرح : **(لعلهن ذبن في الليــل .. ككل كائنات ما وراء الطبيعة)** . تقول ياسمينة بمرح : لعلهن وجدن تاكسياً آخر ، أكثر فخامة وجدة ومضين به ..

يستولي الغروب الرمادي على سهل شتورة والسيارة تركض في عروقه مع الليل .. تصعد الجبل . تتجاوز رأس البيدر وصوفر وبحمدون وتقترب من بيروت ... في الجبال تشتعل النيران في الذرى ، وتتوهج ، وفي شوارع المصايف تتفجر الألعاب النارية وصخب الناس .

احتفال عجيب يستقبل السيارة ، كل هذه النيران ورائحة الحطب المحروق ، كل هذه الذرى النائية المضيئة .. ينقبض قلب فرح : **(كأنني في مهرجان ستقدم فيه ذبيحة بشرية قرباناً لرب شرير . أنا ؟)** تقول ياسمينة بابتهاج : إنه عيد الصليب ، ما أجمل ذلك ! .

بيروت تبدو في قاع الظلمة ، مضيئة وبراقة مثل مجوهرات ساحرة هبطت تستحم في البحر ليلاً ، وخلفت على الشاطىء لآلئها ومجوهراتها ، وأشياءها المسحورة الملونة ، وصناديق الشر والسعادة المطعمة بالعاج والصندل والتعاويذ والأسرار ...

تهتف ياسمينة بفرح : ها هي بيروت .

ينقبض قلبه ويعود إلى تحسس الرسالة في جيبه .

يتوقف السائق بصمت إلى جانب الطريق . لقد انفجرت إحدى عجلات السيارة . يعمل على تبديلها .

ياسمينة وفرح يتأملان بيروت من بعيد كطفلين مسحورين. يهبطان من السيارة ، يسيران قليلاً إلى جانبها ريثما يتم السائق تبديل العجلة . وفي ضوء السيارات الكثيفة يبدوان هشين كأجنحة الفراش قبل الاحتراق .. يحس أن من واجبه أن يسألها عن أسمها ، ان يقول لها أسمه ، لكنه لا يقدر . وأخيراً يسمع صوته يقول : أحب أن أعطيك عنواني في بيروت ، لكنني لا أعرفه بعد . تقول : وأنا أيضاً. ولكنني سأعطيك عنوان شقيقي . سأقيم معه في البداية .

كانت واثقة من أنه سيرميه بعد لحظات كما كانت سترمي عنوانه لو أعطاها إياه . كلاهما لا يهمه أمر الآخر . لا يرى الآخر . منظر بيروت أشعل فيهما الحس بالحميمية للحظة . هذا كل ما في الأمر . وعاد بريق شيطاني يلتهب في عينيها كلما نظرت إلى حفنة الأضواء في القاع (**سأصير حرة . فراشة**) ...

* * *

حين تجاوزت السيارة عاليه استوقفها راكب . كان يبدو متعباً وحزيناً ورث الثياب . صعد اليها وأطلق من صدره أنة عالية الصوت : آه .. آه يا زمن .. وتنهد فرح بصمت كئيب . وفكرت ياسمينة (**ما أسمج الناس الذين يوزعون أحزانهم**) .

وعاد الراكب الثالث إلى التنهد والتكرار : آه .. آه يا زمن ..

فقد كان أبو الملا في حاجة إلى اطلاق هذه الآهات كي لا ينفجر قلبه المريض .. قلبه المريض هو الذي جره إلى هذه الحال .. هو الذي جعله يعود للتو وقد خلفها ، وهي الصغيرة الحلوة ، هناك في أحد قصور الأثرياء الصيفية بعاليه ... لقد مر بمثل هذه التجربة من قبل ، وحزن كثيراً، ولكن الأمر مختلف هذه المرة ... إنه يحس بقلبه مذبوحاً.. قالوا له ان الحزن لا يناسبه.. **(ماذا تبقى لك غير الحزن يا أبو الملا ؟) ..**

اندلق ضوء السيارة على شبح يشير بيديه كلتيهما . توقفت السيارة السوداء الهرمة . صعد الراكب الجديد بعد أن تلفت حوله وتأمل الركاب جيداً . فكرت ياسمينة : **(انه يبدو مذعوراً) ...** وكان طعان مذعوراً فعلاً ... ارتمى في مقعده وهو يرتجف . **(لقد نجوت منهم هذه المرة . لقد استطعت الإفلات من مراقبتهم وضاعت رصاصتهم في الهواء) .** وعاد أبو الملا يتنهد ويردد : « آه .. آه يا زمن » ...

وشعر طعان بحاجة إلى البكاء .

عند الحازمية ، في مدخل بيروت ، صعد الراكب الخامس والأخير ... استند بيده الخشنة الكبيرة إلى المقعد الأمامي وهو يرمي بجسده الضخم في المقعد الخلفي . أجفلت ياسمينة حين لمحت يده الكبيرة ذات الأصابع الثلاث ، وموضع الأصبع المبتورة بأكملها ونصف الأصبع الأخرى الباقية ...

فكرت بدهشة وهي تتأمل وجهه الستيني المرهق **(لم أكن أظن أن في بيروت بؤساً أو عجائز) !**

لاحظ أبو مصطفى أن الفتاة تتأمل يده بذعر . فلمها عن المقعد ودسها في جيبه ففاحت من ثيابه العتيقة رائحة السمك. وفكر بحزن **(هذا المرابي سيمتص دمي . كلما عدت من عنده أحس بالرغبة في البكاء وهيئتي مخيفة ترعب الفتيات)** وعاد أبو الملا يئن : آه يا زمن ... **(كيف تركتك هناك أيتها الصغيرة ؟ كيف ينام هذا القلب الليلة).** أما طعان فكان يتأمل الراكب الجديد

أبو مصطفى بذعر (**تراه منهم ؟ تراهم شاهدوني استقل هذا التاكسي فسبقوني إلى الحازمية ودسوا أحد عملائهم ؟ .. ترى هل ستغوص في خاصرتي سكينه فجأة**) ... خيل إليه أن شيئاً ما قد انغرس في جسده كغزة دبوس .. قفز في مكانه بالمقعد مذعوراً والتفت إلى أبو مصطفى . كان الرجل يبدو نصف نائم ، كمن مات إرهاقاً .. (**تراه يتظاهر بالنوم ، ولن يقتلني في التاكسي وإنما سيلاحقني إلى مخبأي ؟**) ... ولكن أبو مصطفى لم يكن يفكر في قتل طعان . كان يفكر بحزن في المرابي .

* * *

لم يتبادل أحد من ركاب السيارة الخمسة كلمة واحدة ... ياسمينة .. فرح .. أبو الملا... أبو مصطفى السماك... طعان... غرق كل في صمته.. كل منهم كوكب وحيد معزول ولكنهم يدورون في فلك واحد ... عيونهم جميعاً متعلقة بتلك الغابة الحجرية المضيئة الممتدة أمام عيونهم المسماة بيروت .. وكل منهم يتأملها بعين مختلفة .. لم تكن هنالك بيروت واحدة ... كانت هنالك « ٥ بيروتات » ... السائق وحده بدا لامبالياً وحيادياً مثل ملك الموت .

في مدخل بيروت ، بين الحازمية وفرن الشباك ، انتشر بعض الباعة تحت الأشجار . في الضوء القوي شاهد فرح بضاعتهم العجيبة . أكياس من النايلون مملوءة بالماء تسبح فيها أسماك صغيرة ملونة ، وقد علقوها فبدت وكأنها تسبح في النور الشفاف ... شهقت ياسمينة ! ما أجمل هذا ! ... ولم يبد على ركاب المقعد الخلفي اي اهتمام بذلك ... أما فرح فقد اكتأب كثيراً وبدت له تلك السجون الشفافة للأسماك المتدلية في قلب الليل مثل قناديل الموت .

ووجد نفسه لا يدري لماذا يردد كلمات دانتي المكتوبة على باب الجحيم :

يا من تدخل إلى هنا ، تخلَّ عن كل أمل ! ..

لقد أيقظت الشمس جسدها ... ولمساته .. وصوت اصطخاب الأمواج ، ورائحة الملح ، واهتزاز اليخت في قلب البحر ، والويسكي الذي لم تذقه من قبل ، والسماء الزرقاء الشاسعة التي تفيض رضى وهدوءاً كأنما تبارك لحظات اكتشافها لجسدها .. والشمس ، وذلك الإحساس الصاعق المفترس حين تعرت ياسمينة تماماً للمرة الاولى في حياتها تحت الشمس ..

(لم أخلع ثيابي بأكملها من قبل إلا في الحمام ! .. وكنت دوماً أرتديها قبل خروجي متسترة بالبخار الكثيف والنور الشاحب ... بلى .. خلعتها كلها في بيت رجل في دمشق . يومهـــا أغلقنا النوافذ كلها . اسدلنا الستـــائر كلها . اطفأنـــا الأنوار كلها . أقفلنا الأبواب كلهـــا . ومع ذلك ظلت أصواتهم تنزف من الظلا م وترقص على الجدران محذرة من « الإثم » الذي سيقع .. كانت صيحاتهم وصيحات أمي تخرج من جسدي نفسه كأني مسكونة بهم . كلماتهم عقارب تغطي جسدي وتلسعه .. وصاياهم كائنات اسطورية كديدان المقابر تركض فوقي في الظلام وتأكلني وتطفىء شهواتي . وحين لمسني ، انطلقت الأصوات كلها صارخة دفعة واحدة كجوقة رعب ، ولعله سمعها، فقد عجز عن امتلاكي وانطلقت هاربة من بيته . ولم أره بعدها. ولم أكررها) الشمس الشمس ...

تعرض جسدها الناصع البياض للشمس .. شمس أيلول السرية التي تلسع حتى حينما تكمن عبر غيمة .. تتركها تطرد من صدرها أصواتهم .. تطهر

مسامها من العقارب والديدان ، وها هي ناصعة متوردة نقية كياسمينـــــة دمشقية ...

السلحفاة تتحرك أمامها ببطء فوق خشب اليخت . وتسحب جسدها وتنزوي في الظل ، ثم تلملم رأسها إلى الداخل وهي تغمض عينيها احتجاجاً على الشمس والحر ... تضحك ياسمينة .. مسكينة هي السلحفاة .. انها لا تستطيع أن تخلع صدفتها مثلها لتستمتع بالشمس .. أم تراها تعاني من دوار البحر ؟ **(في جبيل طاف بهما شاب بين الآثار الفينيقية ، ثم أصر عـلى ان يبيعها السلحفاة بصفتها فينيقية عمرها أكثر من ٣٠٠٠ سنة ! سألت نمر يومها ، وكان قد طاف بها بين بعلبك وصور وطرابلس : هل تعمل دليلاً سياحياً لكل فتاة تعجبك ؟ رد ببساطة : نعم . هذه من تقاليد الشباب اللبناني . الوطن أولاً !) ..**

أطفأ نمر محرك اليخت ، وأفلته للموج يمضي به حيث يشاء ... ولريح المصادفة .. وانطلق مثلها يركض على سطح الزورق عارياً كسمكة .. واحست بأنهما يعيشان أسطورة الخلق الأولى ، واليخت الصغير صدفة لؤلؤية اللون ، والسماء الشاسعة لم تكن قط أكثر صفاء ... وثلوج أعوامها السبعة والعشرين تذوب .. الثلوج التي هطلت فوقها طيلة عشرة أعوام من قبعات الراهبات حين كانت تعمل مدرّسة . .

انها لا تستطيع أن تصدق كيف تركت جسدها يتحرك طيلة هذه الأعوام دون أن تكتشفه .. كانت لها مغامرات سريعة وعابرة . وكان جسدها يتجنب التجربة دائماً .. كيف حملت جسدها طيلة هذه السنين كعبء ، كجثة ، كمجرد أداة للتنقل وحمل الطباشير .. جسدها الثمين تكتشفه لأول مرة كعالم من اللذات .. ولو لم تأت إلى بيروت لظلت إلى الأبد تجهل كيف تستطيع ان تشتعل ، وان تنتفض ، وان ترقص بجنون تحت لمساته .. اقترب منها ... رذاذ الماء في شعره الأشقر يضيء في الشمس كآلاف المصابيح الدقيقة ... تغمض عينيها وتظل ترى جسده الأشقر الملوح بالشمس ... جسده الصلب

الرشيق الذي ينم عن الثراء ، فالعضلات ليست متورمة كما يحدث لأصحاب المهن اليدوية ، وليست ضامرة كما يحدث للجياع ، وانما هي ممتلئة في انسياب بديع ... انها حصيلة توفر الوقت والمال اللازمين للرياضة المستمرة غـير العنيفة ... وهي تكره فقرها وتحب الثراء وتحب جسده الذي يعلن عن ثرائه بوقاحة في ذلك الأنسجام المذهل التكوين ... وحتى قدماه تعلنان عن ثرائه ... قدمه ناعمة ، وليست فيها أية تورمات أو تشويهات من تلك التي تنمو في أقدام انصاف الفقراء المضطرين إلى ارتداء الحذاء نفسه حتى يبلى مهما كان قاسياً ومؤلماً ومشوهاً لاقدامهم ... وجلد كعبيه كبشرة الأطفال ، لا شقوق فيـه كأقدام الحفاة والبؤساء .. كل ما في ثيابه يعلن عن ثرائه ، وحين يخلع ثيابه ، فكل مـا في جسده ينم عن حكاية هـذا الثراء الطويل .. فكرت ضاحكة **(انه ليس فقيراً مثلي . لقد ولد وفي فمه دفتر شيكات . وولدت وفي فمي كمبيالة مستحقة) ..**

آه ماذا يستطيع جسده أن يفعل بها ... جسده المعطر بزيت البحر الثمين وبنعومة الرفاهية ... لا شيء في العالم يشبه نشوة الالتصاق برجل محبوب ، حينما يتم ذلك تحت الشمس .. وفي وضح النهار .. وفي عرض البحر حيث لا صوت غير اصطخاب الأمواج... ويتحول قلبها من ساعة رتيبة إلى طبل يضج بالرقص في غابة استوائية للعراة ... وتشعر بأنها تنزلق إلى قاع بحر دافىء لزج ، شديد الاصطخاب ، والأسماك الملونة تركض أمام عيونها ، والزبد شديد ، وتشهق . والموج يكبر ، وتئن ، والسمك الصلب يركض على فخذيها كنصل شمسي .

وفجأة ،

تسمع دوياً رهيباً لانفجار عنيف .. يهتز الزورق بأكمله وتعود دفعة واحدة من الأعماق إلى الواقع ... وقبل أن تسأل ماذا حدث يدوي انفجار آخر ، ويخيل اليها ان بيروت عند الأفق ترتجف كأنما ضربها زلزال ... ماذا حدث ؟ يقول نمر بصوت لامبال : لا شيء .. انها الطائرات الاسرائيلية

تخترق جدار الصوت كعادتها . قربي نهدك .. يدوي انفجار ثالث .. تلملم نفسها عنه والسلحفاة تختبىء بأكملها داخل صدفتها . يقول نمر متضايقاً : قلت لك لا شيء . طائرات اسرائيلية فقط . قربي نهدك ...

— ولكن هذا رهيب .

— انه روتين اعتدنا عليه . انهم لا يفعلون شيئاً ولا يؤذوننا . يريدون ارهاب الفدائيين فقط . قربي نهدك ...

كالسلحفاة انكمشت . شعرت بأن رخاً شريراً كبيراً يحلق في الجو ، يحجب عنها الشمس ويلقي بظله المكهرب فوقها ...

« لا يؤذوننا » ..

وتذكرت كيف كانت تمطر طائراتهم موتاً فوق دمشق منذ أقل من عام .. وكيف كانت سعيدة الحظ لأن زجاج بيتهم فقط تحطم بينما اشتعل البيت الملاصق لهم . أرادت أن تقول له ذلك ، فلم تجد صوتها .

دوي انفجار آخر ، وقال نمر بشراسة وهو يغمرها بجسده الأشقر الثري : قربي نهدك !

فقربته .

(آه كم أنا ضائع ووحيد!)

والسبت بعد الظهر في شارع الحمراء ببيروت .. وقف فرح يتأمل الكرنفال وقد ألصق ظهره على العمود الرخامي قرب مقهى « كافيه دي باري » ... والفتيات باريسيات المظهر والسيقان ... لم ير طيلة حياته عدداً من السيقان العارية كالتي شاهدها في نصف الساعة الأخيرة ... والشبان يسيرون كأنما يرقصون .. الكل يمشي في إيقاع راقص كأن الشارع بأكمله يتحرك وفقاً لموسيقى مجنونة غير مسموعة بالنسبة اليه . وتفوح رائحة العرق الشاب ممزوجة بعطر خفيّ حارّ .. وقف فرح يتأمل ذلك كله بدهشة ..

(آه كم انا ضائع ووحيد .. متى أجد نيشان ؟)

منذ وصل بيروت وهو يتسكع مسكوناً بالدهشة ، كل تلك الأقذار في سوق الخضار ، كل ذلك الفقر والبؤس في البرج وأكثر الأحياء ، وكل تلك اللامبالاة في شارع الحمراء .. وكل ذلك الثراء .. السيارات الفخمة والنساء والمجوهرات والعطور والكلاب المرفهة ، الكلاب ذات الثياب المزركشة التي تطل من عيونها نظرة متعالية، حتى أنه حين داس على قدم كلب وجد نفسه يقول له معتذراً : عفواً يا أخ !

(آه كم أنا ضائع ووحيد !)

أمام مقهى « الهورس شو » كان الناس قد التفّوا حول رجل يُرقص قرداً صغيراً .. كان القرد يبدو خائفاً من الجمع ، ولكنه أيضاً خائف من

عصا معلمه .. وكان فرح خائفاً من الجمع والقرد والقراد . القرد يقوم بحركات ساذجة. ولكن الجمهورالخارج من السينما لا يزال في مزاج غوغائي ، وقد وجد في القرد فرصة للتنفيس عن بقية الصفير المكبوت في الصدور ، والذي لم تفرغه بأكمله افلام الكاراتيه والرعب والعنف المعروضة في الشارع ... كان ضحك الجمهور وتصفيره والتفافه حول القراد منفصلاً تماماً عن أداء القرد ، كأنهم يتخذون من القرد حجة لتفجير أحاسيس مضغوطة غامضة .. وفجأة دوى انفجار هز الشارع والقرد والجمهور والقراد وفرح .. لم يبد على الناس رعب أو ضيق ، بعضهم رفع بنظره إلى السماء وبعضهم لم يكلف نفسه عناء ذلك، وانما ظل منصباً باهتمامه على القرد ..

سأل فرح رجلاً مقطوع الذراع ، نصف متسول ، نصف بائـــع « شيكلتس » : ماذا حدث ؟

— انها الطائرات الاسرائيلية .

— تضرب ؟

— لا . لا ادري . يقولون انها تصدر اصواتاً فقط ...

ودوى انفجاران متتاليان متلاحقان ، ولكن الجمهور لم يرفع عينيه إلى السماء وانما ازداد حماساً في حث القرد على الرقص .. **(انهم يخترقون جدار الصوت معلنين عن وجودهم العدواني المتحدي.. ولا أحد ينتبه !)**

ولكن القرد حين سمع الانفجارات غطى وجهه بيديه وأقعى على الأرض مرتجفاً، رافضاً الاستجابة لأوامر معلمه، وحين ضربه بالعصا ظل مغطياً وجهه وكأنه لا يريد أن يرى ما يدور .. دفن وجهه على الرصيف وأدار مؤخرته لكل جمهوره وصار يبكي بصوت حزين ...

وانفجر الناس ضاحكين ...

ووجد فرح نفسه يردد : مجانين ... مجانين ...

وغطى وجهه بيديه ... واجتاحه الدوار إذ تذكر ما حدث له في دمشق حين حلقت الطائرات نفسها منذ أقل من عام ...

وتعالت أصوات الجمهور مطالبة القرد بالرقص ، وكانت حرائق دمشق تشتعل داخل رأس فرح ، وتتناثر الجثث المتطايرة الأعضاء ... ورائحة اللحم البشري الملتهب .. وصوت انهيار الجدران ..

ووقف على جانب الرصيف ،وقد اجتاحه احساس مرّ يشبه التقيؤ والبكاء

(آه كم انا ضائع ووحيد !)

وتحسس رسالة أبيه إلى نيشان .. انه عاجز عن الوصول اليه .

(اتسكع في بيروت وفي جيبي رسالة التوصية من أبي إلى نيشان : قريبي الذي لم أره منذ صغري .. منذ جاء إلى بيروت ونجح وصار مثلاً أعلى لكل أولاد قريتنا دوما .. لن يكون من الصعب علي ان أميزّه وله في كل مجلة صورة في صفحات نجوم المجتمع ، وهو يبتسم للكاميرا .. وهو يتحدث ويشير بيديه. وهو يراقص حسناء عارية الظهر . وهو يمسك كأس الويسكي برشاقة ... وتفوح من صوره رائحة العطر والعذوبة والمال .. آه المال، والشهرة ، والنساء ، والمجد .. و ... و ...) ولكنه لم يكن يدري مدى صعوبة لقاء رجال مثل نيشان : رئيس مجلس ادارة شركة « ننيسكو » للعلاقات العامة ، والمدير التجاري لماركة أحذية شهيرة ومعجون أسنان جديد ، ووسيط صفقة أسلحة كبيرة ، ثم إنه بالإضافة إلى بيع الدبابات يتعاطى أحياناً انتاج بعض الافلام التجارية الناجحة و (خلق) الفنانين الجدد ، وقد لمع في العام الفائت مطرب أطلقه هو وتزعمت حملة الدعاية له المجلة التي يملك جزءاً هائلاً من أسهمها رغم استقالة ناقدها الفني !

(اتلفن لنيشان. أضع القطعة النقدية في الهاتف العام وأدير الرقم . تضيع القطعة النقدية ولا تأتي المخابرة . لا أشعر بأن الهاتف معطل ولكن حظي معطل . أقرّع نفسي على تشاؤمي وأدخل إلى دكان أول بائع سندويش . ينظر الي باحتقار ويرفض السماح لي باستعمال هاتفه . شيء ما في وجهي يدعو الناس إلى اضطهادي .. شيء ما يشد الي الرجال الأقوياء كي يمارسوا سلطتهم علي . أبي ، ذلك القروي القوي ، كان دوماً يتلاعب بقدري . دوماً يرمي

بكتبي التي ادمنها إلى النيران التي يحرق بها أعشاب الحقل الطفيلية والضارة صارخاً : يجب أن تعمل كنيشان، لاأن تقضي عمرك بالتفكير والوسوسة . وحتى حينما كنت أخرج إلى الأشجار لاغني ، كان أبي يصرخ بي : « هذا الصوت تستطيع تحويله إلى ثروة ... سأسلمك لأبن خالتي نيشان ليصبك في القالب المناسب ! .. قالب من ذهب » ..

ذهب .. ذهب .. وأنا أحب الذهب والمال . المال يعني الحرية . المال يعني الوقت . المال يعني شراء الكتب والاسطوانات والسفر وعدم الانحناء للاستاذ عادل مدير المكتبة الوطنية حيث كنت أعمل . المال يعني النساء الجميلات ذوات الأيدي الناعمة والأظافر الطويلة الملونة . المال .. ولكـــن اين نيشان ؟ ..

وأخيراً رد هاتفه ، خاطبتني امرأة بالفرنسية . لم أفهم شيئاً . في المخابرة السادسة توسلت اليها ان تحدثني بالعربية فأغلقت السماعة في وجهي) ...

القسوة ... هنالك مناخ من القسوة يحسه بشدة كلما تحرك في هذه المدينة العجيبة .. انه يسمع باستمرار أصداء بكاء طويل تردده جنبات المدينة ... منذ أول ليلة حل بها وصوت النواح الغامض يطارده ويستوطن صدره ... إنه يحسه كما يحس الرادار المرهف وجود أشياء لا تعيها الحواس المجردة ... وهو لسبب يجهله كان دوماً يمتلك حاسة التقاط شارات الاستغاثة... ربما لانه يطلقها باستمرار .. ربما لانه يعي باستمرار وعياً مبهماً بأنه سفينة غارقة لا مفر — كما كل انسان — كل سفينة غارقة لا مفر ... قلائل يعون ذلك .. المال .. الشهرة .. النساء .. مخدرات سيجربها لينسى غرقه الأكيد ، وان كان ليس واثقاً من مفعولها ، لكنه سيجرب ولو تحالف مع الشيطان... والتجربة أصعب مما توقع ، وشيء ما في مناخ هذه المدينة يسممه ببطء ، كأنه يستنشق فيها غازاً ساماً فريداً يغلفها ، وقد ألفه الآخرون وقرروا التعايش معه .. ولكن ، لماذا هذه التفسيرات كلها ؟ لماذا لا يقرر ببساطة انه « موسوس » وأن صوت النواح الذي سمعه فجر ليلة وصوله إلى بيروت ملأه بالتشاؤم والغم من رحلته كلها ؟

(« فندق العسل » بساحة البرج . لاعسل فيه .. لا شيء غير المرارة تقطر من الجدران العفنة القذرة ، ومن صرير الدرج الخشبي العتيق ، ومن عيون النساء المهترئات اللواتي يتحركن كأشباح مجزرة تاريخية وهن يتسللن إلى غرف الرجال الفقراء والمتعبين أمثالي ... ورائحة البق الحادة التي تفوح من كل شيء ...

عند الفجر تماماً استيقظت على صوت استغاثة حادة ...

كان الصراخ حاداً ورفيعاً . وبدا لي ، في خيوط الفجر الأولى وصمت المدينة ، كما لو أنه يغطي وجه العالم ...

وحين قفزت إلى النافذة عبثاً حاولت فتحها . كانت صدئة وعتيقة . ومن خلف شقوق الزجاج نصف المحطم والمتماسك لم أشاهد شيئاً . لكن الصراخ عاد يتصاعد ، طويلاً وحاداً مثل صوت انسان يعذب .. لم يكن صرخة امرأة أو رجل ، بل كان صرخة قلب يتوجع حتى الانفجار والاعتياد في آن واحد ... كأنه صوت قلب المدينة كلها ...

ركضت إلى الصالون وكدت اتعثر بالأثاث العتيق المنخور ، ثم إلى الشرفة.. لم أر أحداً أو شيئاً ، لكنني ظللت أسمع الصوت .

ركضت أوقظ مستخدم الفندق. قال غاضباً وهو يراني أرتجف : « يبدو أنك غريب . هذا ممكن الحدوث في أية لحظة . ألا تعرف أن شارع « المتنبي »، حيث المومسات ، خلف ساحة الشهداء وفندقنا ؟ ثم انني لا أسمع الآن شيئاً ! »

عدت إلى غرفتي ، وإلى رائحة البق في الوسادة . حاولت أن أنام . نمت ، وحلمت ، أم تراني لم أكن أحلم ؟ حلمت بين النوم واليقظة بصليب مصنوع من أنابيب المياه ومواسيرها الصدئة ، وكنت مربوطاً اليه بأذناب الفئران ، والنيران تشتعل حولي ، وامرأة تضحك وتقول إنه عيد الصليب ، وأنا أكاد اختنق . الدخان يخنقني ... وأسقط أسقط وفي عيني أضواء نيون السينما المجاورة كالشفرات تذبحني ، واسم الفيلم مكتوب على ساق طويلة عارية : يا دلع دلع ... أختنق بالدخان ويجرح عيوني وهج النار ...

استيقظت مذعوراً . كانت النار قد شبت في الفندق العتيق والزعيق يتعالى ... وهربت كالمجنون . وحين نجوت وصرت بعيداً على الرصيف وقفت دون مبالاة بنجاتي) .

* * *

لا يدري كم من الزمن انقضى وهو تائه في شارع الحمراء والأزقة المتفرعة عنه ، لكنه شاهد القراد على أحد الأرصفة نائماً وقد احتضن قرده النائم أيضاً ... ارتعد (أية علاقة جهنمية تربط الذين يتحالفون من أجل لقمة العيش حتى ولو كان أحدهما قرداً ؟ !) وجد نفسه يفكر بنيشان من جديد ... (ذهبت إلى عنوان نيشان بعد أن يئست من الهاتف والسكرتيرة الفرنسية . البناء ضخم . السيارات تركض إلى فجوة في داخله. انتظرته على الباب عدة أيام ولم أره . البواب يمنعني من الدخول ويرقبني ككلب حراسة مرتاب . حقيبة سفري في الفندق لا تزال مغلقة . لم افتحها . ولم اجرؤ على اخراج اشيائي منها . ولا أدري لماذا .

وأخيراً نجحت في مغافلة حارس البناء والتسلل إلى الداخل . ضعت طويلاً بين أربعة مصاعد تطبق بابها الحديدي علي إذا لم أخرج راكضاً دونما مبالاة بجسدي غير الحديدي ... وأخيراً قرأت على الباب : ننيسكو . شركة العلاقات العامة.. قالت لي فتاة تضع النظارات البيضاء وتلعق شفاهها بعصبية بعد كل كلمة : « نيشان بك في أوروبا. عد بعد أيام... ومعك الرسالة. ماذا كان اسم صاحب التوصية بك ؟ »

— أبي عاشور عاشور من قرية دوما .

قالت بقرف ساخر : تشرفنا) .

نظرتها لا تزال تطارده بطريقة ما .. يشعر بأن بيروت كلها تنظر اليه هكذا ، ويسمع باستمرار صوت مستخدم الفندق كالمطرقة يقول : (معك قرش بتسوى قرش) .

ولكن نقوده تكاد تنفد . انه لا يساوي شيئاً في هذه المدينة المفترسة ...

تائمت حوله . كانت السيارات تركض مسعورة . والنوافذ المضاءة تحدق به بلا مبالاة ... مئات البيوت .. مئات النوافذ .. آلاف الوجوه خلف النوافذ .. كل تلك الحياة التي تدور هناك ، ويكاد دفؤها يلفح وجهه وهمهماتها الحميمة في أذنيه . وهو وحيد وحيد .... لا أحد يبالي به ، كأن المدينة المزدحمة وجدت لتعذيب الوحيدين .. سيدخل إلى أول مطعم ويلتهم وجبة شهية ولو نفدت نقوده .. انه لا يزال يحب الطعام اللذيذ ولهم في هذه المدينة أساليب بارعة في جعله شهياً . صحيح انه يعاني من هضمه فيما بعد ، لكنه لا يستطيع ان يقاوم ...

يدخل إلى مطعم بوباي . يحب (البيتزا) التي اكتشفها في هذه المدينة . ينتظر طعامه بشغف . أمامه عاشقان . من خلف جريدته يرقبهما . (مثل كل الناس الوحيدين في المطاعم أتظاهر بالإنهماك في قراءة جريدتي بينما استرق النظرات إلى السعداء) . يقرب كل منهما وجهه من الآخر حين يحدثه كأنه يرشف أنفاسه .. ما أعذب منظر العشاق وما أقساه ! .

(لم أجلس أبداً هكذا مع امرأة نرشف النبيذ في الضوء الشاحب .. يدي تلمس فخذها تحت الطاولة .. نرتجف ونحلم بكل الملذات التي يمكن ان نمارسها معاً) . يأتي الجرسون بالطعام للعاشقين فيقطعان غزلهما فجأة وينصرفان اليه تماماً كأن كلا منهما جالس وحده .. يخيب أمل فرح ، ثم ينصرف عنهما بدوره إلى صحنه العامر ... يمسك بزجاجة « الكيتشاب » ، (عصير البندورة المكثفة) ويخضها قليلاً ثم يفتحها بصعوبة.. يحدث شيء نادر الوقوع : يخرج سائلها في شبه انفجار . ويلطخ ثيابه ووجهه ويديه أحمرها الرطب القاني ...

يتأمل فرح نفسه بذهول . ويغمره احساس مرعب حين يرى نفسه مغطى بما يشبه الدم .. يحس بأنه مثل انسان قتل للتو وما زال الدم الطري يغطيه ذبيحة مضمخة بالنزف ... يتذكر ان ليلة وصوله إلى لبنان كانت ليلة عيد الصليب ، ويتذكر نواح الصوت المجهول عند الفجر .. ويرى الدم الآن ، فيمتلىء قلبه غماً ، ويغادر المطعم هارباً هائماً على وجهه دون أن يرى الجرسون الذي

جاء معتذراً وفي يده خرقة مبللة ...

(آه كم أنا ضائع ووحيد !)

وحين وصل إلى « فندق العسل » فوجىء ببسطة جديدة لبائع الاسماك الملونة ... أكياس النايلون المملوءة بالماء تسبح فيها أسماك صغيرة للبيع ، وهي تبدو في وهج الضوء المنبعث من خلفها وكأنها تسبح في النور مسافرة في الزمان سجينة أبداً في الوعاء الشفاف ... **(آه كم أنا وحيد وحزين ، سجين قدر مجهول كهذه الأسماك !)**

توقف فرح أمامها ، يتأملها وهي تركض بيأس وتنطح برؤوسها جوانب السجن الشفاف . ولا يدري لماذا شاهد سمكة منها تحمل وجهه هو وملامحه هو تسبح بيأس ورأسها يصطدم باستمرار في جوانب كيس النايلون . وهي عبثاً تفتش عن كوة تعود منها إلى البحر ... ولكن لا خلاص ... لا مفر .

بائع اليانصيب يحاصره . يريد أن يبيعه .

ورقة يانصيب له هو ؟ .. يا للنحس !

ولكنه اشترى ورقة ! ..

حين استيقظ أبو مصطفى السماك من نومه كان الظلام دامساً . قرر : هذا وقت العمل . انا واللصوص نعمل في وقت واحد ...

جر نفسه من فراشه الضيق ، ولاحظ أن أحشاء الوسادة بدأت تتدلى من القماش المهترىء .. سعل بشدة وأحس بأن مفاصله ضعيفة لن تقوى على حمله . لكنه حين فكر « بالمصباح السحري » وجد في نفسه قوة لم يكن يحلم بها .. انه يمتلىء قوة وتوقداً وشوقاً إلى لقائه ، ويسارع إلى البحر ...

المصباح السحري ! ..

ثلاثون عاماً وهو يخرج إلى الصيد ، كل ليلة .. كل ليلة دونما انقطاع .. ثلاثون عاماً وهو يحلم بأن المصباح سيخرج ذات يوم من البحر ليعلق في شباكه ... سيكون عتيقاً وصدئاً لكنه سيعرفه ..سيدعكه ثلاث مرات فينتصب جني المصباح عموداً من دخان ، مهيباً كالليل ، ثم يركع بين يديه ويقول له : شبيك لبيك عبدك بين يديك ! .. وسيطلب أمنياته الصغيرة كلها : بيت نظيف . دخل معقول . رزق يكفي الأولاد ونفقات علاج رئته المصدورة .. سيتأمل الجني بحسد ... سيسأله من هو . وإذا وجد الجرأة في نفسه ، فسيسأل الجني عن أسمه ... سيسأله : « لماذا تقدر على تحقيق كل شيء وأنا لا أقدر »؟.

ثلاثون عاماً وهو يزداد تقزماً ، ومصاعب الحياة تجلده ... يشعر بأنه يتضاءل ويذوي مثل عملاق مسجون في قمقم الجسد ...

لكنه يحلم بعملاق المصباح السحري .. وهذا الحلم وحده جعله يستمر ..

انه سره الذي لم يطلع أحداً عليه غير ابنه مصطفى .. وحتى حينما كان رفاقه الصيادون يسخرون من عادته في احصاء غلته سمكة سمكة حين تطلع الشباك . لم يكن ليقول لهم انه لا يعد السمك وانما يفتش عن المصباح !

* * *

في مكان ما بحي (الأوزاعي) الملاصق لشاطىء البحر ببيروت . في أزقة ترابية ضيقة تفوح من البيوت الملاصقة لها رائحة الياسمين والبخور وتنباك نارجيلات متوقدة ، كان الصياد «أبو مصطفى » يمضي صامتاً في طريقه إلى البحر ، وخلفه ابنه الأكبر مصطفى ...

ضاقت الدرب فجأة ، وسقطا في الظلام ، وكان أبو مصطفى يعرف الطريق التي سلكها كل ليلة طيلة ثلاثين عاماً ويستطيع أن يمشيها مغمض العينين ، لكنه أضاء مصباحه (البيل) لاجل ابنه مصطفى الذي يخرج معه إلى البحر لأول مرة وهو يسمعه يتعثر في خطاه ... دائرة مضيئة صغيرة ارتسمت من (البيل) على الأرض ، وبدأ مصطفى يبحث عن موقع صلب لخطواته وقد ثبت نظراته على بقعة الضوء المتحركة ، وداهمه إحساس عميق بأنه انتقل فجأة إلى عالم آخر .. وسار خلف والده بصمت لأن الدرب التي تصب إلى البحر لم تعد تتسع لأكثر من شخص واحد ... وصلا إلى مكان عليه لافتة خشبية منخورة سطرت عليها بخط رديء عبارة : مقهى الليل . ولاحظ مصطفى أن المقهى ذو أرض ترابية تعادل مساحة غرفة متوسطة الحجم ،يضيئها مصباح زيتي (لوكس) ، وفي أحد أركانها سرير صدىء تمدد فيه صاحب المقهى ، ثم منضدة واحدة وبعض الكراسي العتيقة وابريق فخاريّ للشرب .. وقد ازدحم في المكان عدد من الرجال الاشداء ، زنودهم مفتولة . لوحتها قسوة الشمس والريح فبدت في ظلال المقهى مثل أغصان نحاسية صلدة ... لفت نظر مصطفى وجود شبان صغار بينهم ، في مثل سنه تقريباً ، ولكن نضارة الشباب في وجوههم استحالت تحت وطأة قسوة الحياة إلى عنفوان قاس حزين لا يتفق وصغر سنهم .. رحب بعضهم بوالده ، بينما راقبوه بفضول أنيس .

وأشار أبو مصطفى إلى ابنه بيده ذات الأصبع المقطوعة . وقال بفخر وبشيء من الحزن :

هذا ابني مصطفى بصف البكالوريا .. سيترك المدرسة ويتعلم الصنعة لانني تعبت ... سيحل محل أخيه المرحوم علي .

وسعل سعالاً متقطعاً مخنوقاً ثم بصق في الظلام ، وخيل لمصطفى انه يلمح نقاطاً من الدم .. لم يعلق أحد . ولاحظ مصطفى ان الثرثرة هنا قليلة .: تذكر حواراً دار مرة بين أربعة من أساتذته ودام ساعتين كاملتين! هنا لا ثرثرة ... انضم اليه وإلى أبيه ثلاثة رجال وتابعوا سيرهم نحو الشاطىء مباشرة عبر طريق رملية شديدة الانحدار والالتواءات . كان هناك زورق صغير . خاضوا في الماء عدة خطوات ثم صعدوا إلى المركب . كاد مصطفى ينحني لطي أطراف سرواله كي لا يبتل . لكنه لاحظ ان أحداً لم يلتفت إلى ذلك ، فخاض في الماء مثلهم وأحس بلسعة شبه باردة . (**لقد اقترب الخريف . وبدلاً من المدرسة سيكون علي أن أدخل في عالم أبي الوحشي .. لقد بدأ خريف عمري دون أن أحيا ربيعي . هكذا نحن . نعيش خلسة . نتعلم خلسة . نقرأ الكتب خلسة . نحب خلسة . ونكتب الشعر خلسة . ونموت خلسة**) .

جلس الجميع في المركب بسرعة ونظام وهدوء وتحت جنح الظـــلام تماماً (**كما في أفلام المغامرات التي أذهب اليها خلسة**) ..

كاد مصطفى يقول شيئاً . معلقاً على لسعة ماء البحر الذي بلله حـــتى الركبتين . لكن صوت ضربات المجذافين اسكته . كان انشودة مثيرة ، يزيدها اثارة ابتعاد القارب التدريجي عن الشاطىء وعالمه ، والموت التدريجي لأصواته وروائحه ، وحتى تفاصيل بيوته وأزقته .. هذه أول مرة يخرج فيها مصطفى إلى البحر . كان والده قد أقسم يوم مولده أن لا يحمله إلى البحر حتى ولو لنزهة ، وان يبقيه بعيداً عن بؤسه ومصيره ، وأن يعده لحياة أفضل ويعلمه. وها هو العجوز ينهار أخيراً تحت وطأة رهن قاربه « الفانوس السحري » وعشرة أفواه تفتح ثلاث مرات في النهار طالبة العلف ، والغلاء والمرابين والقسوة والشقاء ... وأخيراً المرض.. كان ابنه علي يساعده ، ولكن بعد فاجعة موته

لم يبق أمام أبو مصطفى الا ابنه البكر يعينه ..

دقائق ، وربما أكثر ... ولم يعد مصطفى يميز فانوس « قهوة الليل » ، واختلطت أصداء أبواق السيارات وأغاني الترانزستورات واستحالت إلى همهمة نائية خافتة لا تكاد تسمع عبر صدى ضربات المجذافين . ثم كف أحدهم عن التجذيف ، وحين التفت اليه مصطفى متسائلاً وجد انهم كانوا قد التصقوا بمركب بخاري كبير ، قرأ بصعوبة في ضوء اللوكس المرتجف اسمه نصف الممحوّ : « الفانوس السحري ». صعدوا إلى المركب . ربطوا اليه القارب ذي المجذافين . أداروا محركه . رفعوا مرساته وانطلقوا إلى عرض البحر .

صوت المحرك المزعج ورائحة دخان مازوته مزقا سكينة البحر وهيبته . واستيقظ مصطفى من عالمه الشاعري الرؤى ، ووجد نفسه يعود من خلجان مرجانية الصخور ، فيروزية السماء والاحلام ، كان قد طار اليها على أصوات ضربات المجذافين والصوت العذب لانحسار الماء عنهما ، ويرتطم بالبحر الواقع ، بحر بيروت القاسي ، بحر حقل الالغام والحرب بين الانسان وبقية مخلوقات الطبيعة من أجل البقاء ... **(لقد انتهى زمن القراءة والكتب التي استأجرها من المكتبات والأصحاب .. وداعاً يا زمن كتابة الشعر ... ما جدوى الحبر أمام هذا البحر ؟)**

سأل والده : متى نبدأ الصيد ؟ .

— نطرح الشباك الآن .. أضواء اللوكس تجتذب الاسماك كما الفراشات . أنظر .

اقترب مصطفى من حافة المركب . انحنى . شاهد في ملاصقة النور عشرات الاسماك الصغيرة ترقص فرحة رقصة الموت ...

— نطرح الشباك الآن ، لكن عملية الصيد الجدي لا تبدأ الا بعد غياب القمر أو مع خيوط الفجر الاولى ! ..

— لماذا ؟

— لان ضوء القمر الساطع يبطل غالباً مفعول نور (اللوكس) فيقل

تهافت الاسماك على الشباك ..

وفكر مصطفى : (**يا لطرق الصيد البدائية. يجب أن نفكر بوسائل أخرى**)..

وكأن والده حدس ما يدور في خاطره ، فتابع قائلاً :

ــ بأكثر من طريقة نصطاد ــ حسب فصول السنة ــ وكلها بدائي ، لان ما نملك من أدوات ووسائل بدائي أيضاً . صنارة . فخوخ . فشباك . وأحياناً ديناميت يأكل أصابعنا ... كل شيء ضدنا ، البحر ، والدولــة ! ..

رغم أحزان والده عاود مصطفى مزاجه الشعري . قرر أن يكتب قصيدة .. سيقول فيها (هذا القمر الذي غزاه الرواد ، لا يزال يمارس مفعوله الاسطوري على الاسماك والعشاق . وها هو يقف في كبد الليل .. حارساً لاسماك البحر يحميها من مكائد الصيادين وفخاخهم) ...

ولكن ، هل هو حليف الصيادين أم حليف الاسماك ؟ لقد نسي انه سيكون صياداً وان التغزل بالاسماك أو رثاءها لن يجديه .. لقمة العيش هي المهم .

لا . سيقول أشياء أخرى أفضل حين يكون على البر .. كل ما في الأمر انه بدأ يحس بدوار البحر ، وربما بسبب رائحة احتراق المازوت ..

(لن أصلح صياداً . أنا شاعر مصاب بدوار البحر . ومصاب بالدوار حتى على البر) ..

أطفأ والده المحرك البخاري للمركب . سينتظرون ساعة وبعض الساعة قبل رفع الشباك النهائي ، في انتظار أفول القمر ، الملاك الحارس للاسماك ..

* * *

صمت محرك « الفانوس السحري » .

صمتت نهائياً أصوات الكورنيش على طول الشاطىء . بيروت استحالت إلى بقعة نائية من الأضواء المرشوشة . السماء اصبحت اكثر قرباً من سطح الزورق ، حيث تمدد مصطفى على ظهره .

في السماء عدد قليل من النجوم ، والقمر يتوسطها .

القمر لا يزال قمراً بالنسبة اليه ، ساحراً وشفافاً ، يسكب على البحر

لوناً أزلياً من الظلال الفضية المسكونة بهمس التاريخ واسرار العصور ..

(لم ينقص حبي للقمر حين عرفت انه ليس كوكباً من الزئبق والفضة والعاج والعطور وانما مجرد كرة أخرى منطفئة كالأرض ، كلها غبار وصخور وحصى .. ولماذا ينقص حبي ؟ لن يتبدل حبي لحميدة اذا علمت انها مصابة بالديدان المعوية ، وان داخل جسدها الجميل — الذي اكتبه كل ليلة شعراً — تغلي قبيلة من الكائنات البشعة المرعبة . الخيال ليس بالضرورة نقيضاً للحقيقة ، بل انه الوجه الآخر ..) .

احس بما يشبه الدوار يستولي عليه رغم سكون المركب . قال له والده : « انهض وساعدنا في رمي الشباك . الحركة والعمل يلغيان الحس بالدوار . »

نهض .

سار قليلاً ثم انهار على كوم من الشباك . ترك وجهه يغرق فيها . وكانت متعة عجيبة ان يشم رائحة حبالها المالحة تخترق رأسه ، ويسمع خلالها أصوات الاف الأمواج التي طالما تلاعبت بهذه الشبكة . ويمتلىء رأسه برائحة رطوبة لزجة زنخة ، ممزوجة برائحة أعشاب البحر ، وترقص فوق صفحة وجهه كل الاسماك التي أدت رقصة الموت داخل هذه الشبكة. وعبثاً حاولت التسرب من شقوقها الضيقة لتعود إلى البحر ، إلى الحرية والحياة .. رغم دواره كان صوت الامواج ساحراً وآسراً ، وظل مستمتعاً بنسيم الليل المحمل بالإيحاءات ، المثير لذكريات غامضة شبه منسية كان يعيها في طفولته بشكل أفضل . **(أليست بصيرتنا امام اسرار الوجود عمياء ، لكنها كالرادار تتنبه أحياناً لاشارات كونية مبهمة ؟)** وأحس بأن صوت الامواج والريح ، ورائحة الشبـــاك وطعم فلّينها المملح عـــلى شفتيه ، وحكاياها المصبوغة بدم الاصابع المقطوعة للصيادين ،وآثار عضات الاسماك على الحبال الرفيعة لحظة احتضارها .. هذه كلها اشارات كونية تروي انشودة الصراع من أجل البقاء ، انشودة حزينة ازلية مذهلة مليئة بالعنف والحنان والشراسة .

ناداه والده : « انهض واعمل معنا . سيبارحك دوارك . شمر عـــن

ساعديك ! »

ولكن ميوله الشعرية هي التي شمرت عن ساعديها ، وعاودته رغبته في كتابة قصيدة (ها انا في بحر الاوديسة وسندباد ... بحر القراصنة والاساطير والاتلنتيد ...

وبقية المدن المسحورة المدفونة في الاعماق ...

وصناديق المرجان والذهب واللآلئ ،

ذات الاقفال الصدئة ،

المستقرة منذ عصور سحيقة في قاع البحر ...

بحر المراكب العتيقة من أوراق البردي ،

بحر الفينيقيين ،

بحر الدهشة والرغبة في الاكتشاف ،

بحر كولومبوس ، بحر العالم القديم والجديد ،

البحر الحياة والموت ، والمجهول والسر ،

بحر الصراع ، والعاصفة قاصفة الاشرعة بالمطر ،

والمطر شلال القدر على قوارب الرجال الجياع .. البحر العظيم نسيناه في بيروت) . يحزنه ان البحر صار في خاطر الناس في بيروت لوحة ميتة مدقوقة إلى نوافذ المقاهي المطلة عليه ، صار امتداداً أزرق لاسفلت الشارع الأسود.

... صار في الاذهان مجرد اعلان عن باخرة سياحية درجة اولى تضم مسبحاً وباراً ونساء شبه عاريات . صار سمكة مسجاة في الفرن . (**نسيناه ، اله العالم القديم هذا ، ومخلوقاته الجميلة العجيبة ... ولكنه لايزال هنا كما كان ابداً . صامتاً منذ الازل . غامض اللغة ، غامض الغضب ، غامض اللعنة والرموز**)..

سأله احدهم : « كم الساعة ؟ » ادهشه ان يسأله عن الساعة . ان يسأل احد عن أي شيء . (**انـــا خارج الزمان والمكان . مرمياً فوق شباك الصيد ، امتطيها كما لو كانت صاروخاً يطير بي عـــبر العصور ، عبر المحيط ، لازداد التقاطاً لشارات اكثر من عصر وجيل ومكان ، واقتراباً من الحقيقة المنسية**

في اعماقي) .. يعود الصوت يسأل ملحاحاً : « كم الساعة يا مصطفى ؟ »
(هنا لا زمان .. لا عصر .. لا كوكب محدداً .. من الممكن ان يكون تاريخ هذا المشهد قبل التاريخ او بعد الف عام ... هكذا كان البحر والسماء ابدا وهكذا سيظلان .. الانشودة نفسها .. الزمن ذاته) ..

فجأة ، مزقت ازلية المشهد طائرة اقبلت من بعيد . كانت تقترب بسرعة وتنخفض ، وتزداد محركاتها صخباً واضواؤها وضوحاً ... وعاد مصطفى إلى نفسه مرغماً ، يلملم اذيال حلمه الكوني ... قال بصوت مقهور : « الساعة تقارب الواحدة . »

قال احد الرجال : « ما زال الوقت مبكراً على رفع الشباك » .

اخرج صنارة وجلس يجرب حظه بها . خلع رجل آخر ثيابه وقال : « انني في حاجة إلى غطسة ! » يقول ان الماء دافىء ويسبح حول المركب ، بالضبط في الناحية التي علق بها « اللوكس » ، حيث تغلي بعض الاسماك الصغيرة متجمعة حول الضوء .. يتأمله مصطفى والاسماك حوله : **(ما الفرق ؟ انه سمكة اخرى في هذا البحر الازلي الشاسع)** . الاسماك الصغيرة تدور حوله . بوضوح يراها تنزلق في الماء برشاقة قرب جسده . **(انه فرد منها ، سمكة أخرى في بحر الوجود) ..**

سمع مصطفى ما يشبه الشهقة . لقد اصطادت صنارة الرجل سمكة . اخرجها من الماء . انتزع الصنارة من فمها وامسك بها . في ضوء « اللوكس » رأى السمكة تفتح فمها بيأس كأنها تريد ان تقول شيئاً ، كطفل محتضر ، والرجل يرمي بها إلى صندوق « الغلة » .. سمعها تشهق . مصطفى واثق من انه سمعها تشهق . غرق في حزن حقيقي كأنه شهد احتضار انسان . لم يبد على الصيادين المتعبين أنهم سمعوا أو لاحظوا شيئاً . **(يا لها من جريمة ! لن اعمل صياداً . من وجهة نظر البحر والشاعر ، ليس هنالك فرق بين مصرع سمكة ومصرع انسان . كلاهما روح حية ازهقت ! من اليوم فصاعداً ، سأعجز عن أكل السمك . وإذا اصرت امي قائلة انها طازجة سأقول لها : تعنين انها**

حديثة الاحتضار وأن الجريمة لا تزال حارة ؟ .. واذا دعاني صديقي الغني إلى المطعم ، وارغموني على قراءة انواع السمك المطبوخة في قائمة الطعام فسأقرأها كما لو كنت اقرأ جدولاً باسماء الوفيات والقتلى في صفحة الجرائم ! !)..

فجأة ينفجر اصبع من الديناميت ، وعلى ضوء « اللوكس » يرى مصطفى عشرات القتلى من الاسماك يلملمها مركب اقترب منهم حتى كاد ان يلتصق بمركبهم . صرخ بهم أبو مصطفى : « الديناميت ممنوع . انه يبيد صغار السمك ونبقى في العام المقبل بلا رزق . »

رد صوت غاضب من المركب الآخر : « ممنوع علينا ، ومسموح به لسوانا ، لأهل الوساطات « واللي عندهم ظهر يحميهم » ! . نريد ان نأكل . الاولاد جاعوا ، والشباك اهترأت ، وثمن المازوت ارتفع ... الدنيا تغيرت يا بو مصطفى ... »

يرد أبو مصطفى بصوت مكسور : « معك حق . »

ثم جمع القتلى بسرعة ورموا إلى مركب « الفانوس السحري » بعدة اسماك ... كهدية .

(الجريمة في نظر الناس هي فقط قتل كائن من فصيلتنا البشرية . لم نتطور انسانياً وكونياً بعد لتصبح الجريمة هي أي ازهاق لروح حية ! كم اشتاق إلى الفلسفات الهندية والآسيوية التي تحرم قتل اي شيء حي ، حتى البعوضة ! .. وكم يشتاق عصرنا البشري الوحشي إلى انسانية غاندي النباتي الذي يفيض منه الحب حتى ليغسل كل مخلوقات الكون الحية !) ..

اقترب أبو مصطفى من ابنه الواجم الشارد وفي يده سكينة وسمكة ... كانت السمكة لا تزال تنتفض . مزق احشاءها بضربة واحدة ، وانحنى على طرف القارب وغسلها بماء البحر جيداً ، ثم وضعها على محرك القارب الذي كان لا يزال حاراً وقال لمصطفى : « ستشوى بسرعة .. وسأطعمك سمكاً طازجاً لم تذق مثله في حياتك ! »

سأله مصطفى بعداوة : « الم يحدث أن شعرت مرة بالحزن لموت سمكة ، واعدتها إلى البحر رحمة بأنينها ؟ » .

رد والده : « ان صوت انينك ، واخوتك العشرة ، حين تجوعون هو كل ما اسمعه . »

احس مصطفى بالخجل والبؤس معاً **(منطق كل ما في العالم من فلسفات جميلة ينهار امام منطق صراخ طفل جائع).** احس بالأسى لأن شريعة مـــا جعلت لعبة القتل شبه ارغامية . اقتل او يقتلوك . القوي يأكل الضعيف . البقاء للأقوى .

كان والده يتابع تمزيق السمكة وشيّها على المحرك حين ناول مصطفى سمكة صغيرة استخرجها من احشاء سمكة أكبر منها وهو يقول ببساطة : « انظر ! .. السمكة التي تحزن على موتها قد ابتلعت قبل دقائق اختها الاصغر ولم يتسع لها الوقت لهضمها . هذه هي الحياة ! » .

ظل مصطفى واجماً ، ووالده يتأمله بحزن عميق . **(هذا الولـــد لن يصير صياداً ابـــداً . انه مفسود « وصايع » .. يريـــد ان يكون شاعراً .. انه نصف مجنون ، غارق في الاحلام والأوهام .. ولكن ، هل انـــا خير منه ؟ انا الذي قضيت ثلاثين عامـــاً من عمري في البحر محاولاً صيد قمقم الجني وفانوسه ؟ انا صياد الوهم ، صياد الجني القوي المطاع الذي لا ترد له رغبة ... ان كان مصطفى مجنوناً فقد ورث جنونه عني ، انا صيـــــاد « الفانوس السحري » !) .**

وانطلق صوت أحد الرجال وهو يغني موالاً حزيناً من تلك الأغاني الخاصة بالصيادين ويقـــول : **« السخلة دعت إلى الله ، آكلي لا يشبع وصيادي لا يغنى وبائعي لا يربح . والفلوكة تعبت ... »**

والعيون كلها معلقة بانتظار غروب القمر . والقمر صار قرصاً أصفر وقد انحدر نحو الأفق ، وصار لونه وشكله شبيهاً برغيف خرافي يبحر الجميع لأجل القاء القبض عليـــه . وتنهد مصطفى بحرارة عاشق مراهق في البحر .

بينما عاد والده يتأمله بأسى : (لن يصير ابداً صياداً فحلاً كشقيقه المرحوم علي ... انه لن يقدر ابداً على ملء فراغه .. لقد كنت مخطئاً حين ارغمته على ترك المدرسة والانضمام إلي .. لقد اتخذت ذلك القرار على عجل في « التاكسي » الذي اقلني من بيت المرابي مصاص دمي وكدحي وعرقي ... ذلك المرابي الحقير الذي رهنت لديه مركبي « الفانوس السحري » ومن يومها والفوائد تنبت كالشوك ... ولكن مصطفى لن يساعدني كما خيل الي .. لم يخلق للبحر .. علي خلق للبحر مثلي ، وكان اقوى جسداً من مصطفى رغم انه يصغره بثلاثة أعوام ... لم تفسده الكتب ولا فك الحرف ... ولكن سمكة قتلته . ما زلت حتى اليوم لا اصدق كيف قتلته سمكة ! . استعيد الأمر وأكاد أجن .. كنا نصطاد أول هذا الصيف يوم جرب حظه للمرة الأولى مع أصبع ديناميت .. كان « الضرب » موفقاً وخرجت له عشرات من الاسماك طفت على وجه الماء .. قفز إلى الماء فرحاً وبدأ يرمي بالأسماك إلى القارب ، ولكثرة ما استبد به الفرح حمل في كل يد سمكة كبيرة ، وقبض باسنانه على سمكة ثالثة وسبح بها نحو القارب . السمكة في فمه لم تكن قد ماتت بعد . كانت تتخبط . انزلقت إلى حلقه .. واختنق ..

اختنق فعلاً ... مات . بكل بساطة اصطادته سمكة بدلاً من ان يصطادها . حملناه جثة ، وعدنا به إلى امه ... حاولت ان اقول لها ان ابننا مات ولكنها لم تفهم .. كانت في حالة مخاض تضع طفلنا الأخير ، والعرق يبلل وجهها ذا العضلات المتقلصة بأقصى الألم والعمل ، وكانت تصرخ بقوة ليخرج طفلها إلى الحياة حياً ، وجسدها كله ينتفض ، وكنت اصرخ في وجهها : علي مات يا أم مصطفى ! .. لم يبد عليها انها قادرة على فهم عبارة « مات » في تلك اللحظة . وصرخ طفلنا الجديد صرخته الاولى وقد حملته الداية وحبل الخلاص ما زال يقطر دماً ، وقالت ام مصطفى بهدوء التعب المجيد : فلنسمه علي !)..

القمر صار قرصاً محمراً دامياً . رغيفاً ملطخاً بالدم . الرجال يشدون الشباك من الماء . زنودهم المفتولة تلتمع في ضوء « اللوكس » وتزداد انتفاخاً

وصلابة ، تلتمع بالعرق الذي بدأ ينزف منها ، تصبح كمعاول بشرية تحفر حتى قلب البحر بحثاً عن القوت ... ينشدون اثناء اخراج الشباك اغنيات هي اقرب إلى صراخ التشجيع المنغم منه إلى التطريب . لاحظ مصطفى ان غناءهم يساعدهم أيضاً على تنظيم تواتر حركاتهم بحيث يتحرك عشرون ساعداً في لحظة واحدة .. عبثاً يخلع مصطفى عن نفسه دواره ، عبثاً ينهض ليشارك الرجال اغانيهم وعملهم المضني ، وهو المكوم على طرف المركب كالجثة بينما دماغه يعمل داخل صندوق جمجمته ! رغم الدوار ، الاسماك تقفز داخل الشباك وتضطرب . **(كل يتحرك على طريقته مكافحاً من أجـــل بقائه)** .. يخرجون بالشباك، وتضيء وجوههم المغسولة بالعرق وماء البحر ، المكدودة اعياء وتعباً ، وأصابعهم الممزقة النازفة على حد الحبال ... دقائق وتكف كومة جثث الاسماك على خشب القارب عن الحركـــة . ولم يعد مصطفى حزيناً لأجلها وحدها ... **(لعبة الحياة ككل هي التي تعذبني . الصياد والسمكة . الموت هو وحده الصياد الذي لا يرحم والذي يتساوى في شبكته القاتل والقتيل)** ...

حين عاد مصطفى تلك الليلة إلى فراشه تحجرت يده واغمي عليه ارهاقاً. وحينما استيقظ جائعاً لم يجد في البيت ما يأكله غير سمكة . اكلها ، ولم يكتب قصيدة ! ..

* * *

على بعد يسير من قارب أبو مصطفى السماك وبقية قوارب الصيادين المتحركة. كانت هنالك نقطة مضيئة ساكنة في البحر... لم تكن مصباحاً لزورق صياد ضل طريقه ، وانما كانت النور القوي الكشاف ليخت نمر السكيني ، ابن فارس السكيني ، التاجر الكبير ومحتكر بيع السمك وأشياء أخرى كثيرة ...

ياسمينة لم تنم تلك الليلة ... كانت لا تزال ترشف الويسكي وتدور في ارجاء اليخت عارية تماماً ... يحلو لها ان تخلع ثيابها كلها وتتحرك في الشقة وفي اليخت عارية تماماً . ان ذلك يملأها بأحساس عذب بالحرية . في البداية كان نمر معجباً بعادتها تلك ، وكان يتأمل جسدها الأبيض الشديد الامتلاء وهو يتحرك بين الوسائد المخملية والرياش ، وينحني لوضع الاسطوانات في « البيك – أب » ثم يحملها فوراً إلى الفراش ، وأحياناً ينهار واياها على الطريق الى فوق « الموكيت » الثرية بريشها ... تتذكر ذلك كله بحسرة حين تسمع صوتاً يقول لها بحنان مفتعل بارد : « ارتدي ثيابك . الطقس بارد في الليل وقد بدأ الخريف . »

للمرة الاولى تشعر بانها عارية ، فعيناه ترفضان عريها . تلف حول جسدها « كيمونو » حريرياً وتخرج إلى سطح اليخت تتأمل زوارق الصيادين المضيئة . وتنفجر في بكاء خافت ...

منذ أيام وهي تحس بحاجة إلى البكاء وتتجلد . شيء ما قد انكسر بينها وبين نمر . شيء من البرود صار يلف علاقتهما . خيط من الموت تسلل إلى

كل ما يدور بينهما . خيط من الصدأ نبت على الشفاه والجسد ، وصارت تحس لقبلاته طعم الصدأ في فمها ... ماذا حدث ؟ لا تدري . انها لا تزال تلتهب تعلقاً به ، لكنها تعرف بحدس الأنثى الذي لا يخطىء ان شيئاً ما قد انتهى ... انها لا تستطيع مناقشته لانه لم يبدل أسلوبه العام في معاملتها . ما زال يغدق عليها النقود ، وما زال يغدق عليها جسده في الفراش ، ويغدق عليها وقته وحضوره ... وهي لا تستطيع مناقشته في التفاصيل الصغيرة ، كسؤاله عن سر الهاتف الصباحي الخامس والموعد الذي ضربه لشخص ما في التاسعة من مساء اليوم التالي — فالمفروض انها كانت في الحمام لا خلف الباب تسترق السمع — او سؤاله عما عنته تلك المرأة المتصابية في المطعم عندما قالت له : « مبروك » ثم رمقتها بنظرة ساخرة وحدها المرأة تعرف كيف تفسرها ! .. وحتى إذا صارحته بمخاوفها وشكوكها او قالت له : « احس بانك لم تعد تحبني كما من قبل » فسيرد عليها : « شكك في حبي هو دليل خفوت الحب في قلبك . الشك دليل عدم الثقة ، وعدم الثقة دليل عدم الحب . الذين لا يفكرون في الخيانة لا يشكون بخيانة الحبيب . » هكذا قال لها البارحة ، ونقلها من منصة المدعي العام إلى قفص الاتهام ! .. جواب جميل لكنه غير مقنع . كلمات . كلمات . لقد اقسم لها على اخلاصه ولم تجرؤ على ان تقول له ان كلماته لم تصب في قلبها .. وان للمرأة العاشقة حاسة غريبة مرعبة تشم وجود المرأة الأخرى .

(ما زلت احبه . احب ما يستطيع ان يفعله بي جسده العاري . احس بالامتنان نحوه بعد ان حولني من سهل من الجليد إلى حقل من الالغام ... كلما تشاجرنا لا املك الا ان استرضيه . اصبحت مدمنة ، وجسده الهيوني . يحلو له ان يكسوني بالثياب الثمينة . ان يخرج معي إلى المطاعم الفخمة كي يرانا اصدقاؤه . اعرف انه يحب استعراضي امامهم في « الكاف دي روا » وفي « الباناش » و « تامبوريل » وبقية مقاصف بيروت الفخمة ، ويحب اذلالي امامهم تدليلاً على سحره الرجولي ... اعرف انه يهملني احياناً ريثما يغزو

اخرى يستعرضها امامهم ولو لليلة واحدة ، ثم يعود إلي . دوماً يعود إلي لأن احداً لا يحبه كما احبه ، ولانه ليس في العالم امرأة تمتص رحيقه بالشهية التي امتصها انا ... انا بالنسبة اليه غزوة .. وهو بالنسبة الي فاتحة عمري كله... حين تحدث ذات يوم عن خطبته إلى نائلة السلموني ، ابنة غريم والده السياسي فاضل السلموني ، ظننته يمزح ... اعتبرتها نكتة مسلية ان يتم الزواج في هذه المدينة العجيبة انطلاقاً من الصفقات العشائرية والمصالح السياسية ، وان يخطط له بين شخصين لم يلتقيا من قبل ... وبين ذراعي العريس امرأة تذوب به حباً ، وربما كان يحبها هو أيضاً دون ان يلحظ ذلك ! ما زلت احبه . وحبي العظيم لجسده منعني دوماً من مجرد رؤيته بوضوح . الا ليلة البارحة . يخيل الي البارحة انني شاهدت وجهه الحقيقي لثانية ...

بدأنا يومنا في جونيه .. صعدنا بـ « التلفريك » إلى حريصا ، وتمنيت لو ندخل إلى الكنيسة في قمة الجبل لنتزوج فجأة ... لكننا تابعنا رحلتنا إلى الفراش دونما زواج ، كالعادة ...

قبل منتصف الليل بقليل قال انني استنزفه وانه متعب وسئم ... اما انا فقد كنت أشد جوعاً إلى جسده من أي وقت مضى .. قلت له ذلك فنصحني بالتفتيش عن رجل آخر . ظننته يمزح . قلت له : احبك ، ولذا استمتع معك . لا يستطيع اي رجل آخر ان يمنحني هذه المتعة .

صرخ بي : جسدك مسكون بالشياطين .. اي رجل سيمتعك . اذهبي وجربي .. انني اشك اصلاً في انك كنت عذراء حين بدأنا معاً ... لقد مارست علي لعبة ما ..

وبدأت ابكي فاسكتني بقبلة ، ثم ذهبنا إلى « الكازينو » ليلعب القمار قليلاً كما يفعل دوماً حين تأتيه نوبة غيظ ما — ام تراه افتعل الشجار وكان موعد الكازينو مدبراً ؟ — وهناك تقدم منا « بيك » هام سلم عليه وعرفه إلى ابنته ، وهي فتاة عادية الوجه ، ترتدي مجوهرات غير عادية . وحين سمعت اسمها — الآنسة نائلة السلموني ، كريمة فاضل بك السلموني النائب — تحجرت .

انها هي .. ابنة خصمه السياسي والخطيبة المرشحة ... لفت نظري انه قدمني اليها باسم مستعار . لم يقل لها اسمي : ياسمينة بل قال لها : مدموزيل ابراهيم ، زميلة جامعية سابقة ! وفهمت لماذا كان راغباً في الذهاب إلى « الكازينو » من دوني .

تراه حقاً سينتزع جسده المزروع في جسدي ، ويمضي بعيداً ؟ ..

لقد قطعت كل الجسور . لم أعد أعمل . صحيح انه ينفق علي بكرم ، وانا انفق على شقيقي الذي يغمض عينيه عما يدور اكراماً لنقودي .. ولكن.. هو .. جسده ... لقد الفته .. ادمنته .. اني مريضة به .. طيلة سبعة وعشرين عاماً وأنا ممنوعة عن ممارسة تلك المتعة المذهلة ، وها أنا اليوم مريضة منحرفة ، وقد كرست نفسي للفراش وفي دمي شهوات النساء العربيات المسجونات على طول أكثر من الف عام ... ولم يعد في وسعي ان امارس الجنس كجزء من وجودي ... لقد هزمت امامه ، وصار هو وجودي كله . وفي الليالي القليلة التي اقضيها في بيت اخي بعيداً عن جسده الأشقر ارتجف كمدمن محروم ، وافقد كل قدرة على التعقل . انني ارى جنوني وارى خطأي وارى بوضوح كيف اخرج من منزلقي ، لكنني عاجزة عن ذلك ... لقد نسوا حين حبسوني في قمقم التقاليد انهم بذلك يجردونني من مقاومتي ...

وها انا استسلم لنهر النار الذي يجرفني ، نهر الآهات الكاوية ... وها انا اخيفه بشهيتي اليه ، فهو لن يفهم انني لست مومساً ، ولكن جوعي لجسد عمره اكثر من الف عام ! اشم رائحة الخريف في الجو ... الريح بدأت تعصف باردة ... ترى انتهى صيفي إلى الأبد ؟ !)

ظلت طويلاً واقفة على سطح اليخت دون ان يلحق بها ... خلعت رداءها ووقفت تبكي في الليل عارية ووحيدة .. للمرة الأولى حسدت سلحفاتها المكومة داخل صدفتها ... (لماذا لا صدفة لي احتمي بها كسلحفاتي ؟ اني وحيدة وهشة وعارية تماماً لضربات نمر ما دمت ادمنه هكذا .) ...

خلف شريط اضواء قوارب الصيادين تبدو بيروت في البعد خافتة النور

ومرتجفة مثل جمرة نصف منطفئة ... وانحنت ياسمينة على طرف اليخت ، وقرأت اسمها المكتوب عليه في الظلام : « ياسمينة » ...

(غداً يغير الطلاء . سيأتي عامل ويمسح عنه اسمي ، ويكتب فوقه اسم اخرى ... ربما سيكتب اسم نائلة) .. ولكنها لا تستطيع ان تصدق حقاً ان ذلك يمكن ان يحدث.. انها مثل زوجته .. تحبه.. تخلص له .. تعاشره.. تمتعه .. تمنحه كل شيء .. لا تريد من الدنيا سواه . كانت عذراء يوم امتلكها ولم تعرف رجلاً سواه .. لماذا لا يتزوجها هي ؟ .. لماذا لا تسأله غداً ؟

في التاسعة من مساء اليوم التالي كان نمر السكيني يرافق والده إلى بيت فاضل السلموني في زيارة عائلية للتعارف ... ولخطبة كريمته الآنسة نائلة التي شاهدها مرة واحدة في رفقة والدها في « الكازينو » ... ولكن مصالح والده الانتخابية تفيد الكثير من هذه المصاهرة مع اسرة خصمه السياسي التقليدي .

في التاسعة من مساء اليوم التالي كانت ياسمينة تدور في شقة نمر الفاخرة وهي تتساءل بحزن : ترى اين هو الآن ؟ وعلى من ينثر حضوره العذب ؟ ولمن تضيء عيناه ؟ .. وكانت سلحفاتها تمشي منكسرة الرأس أكثر من عادتها ، بل واشد بطئاً كأنما اثقل كاهلها الحزن .. وقفت ياسمينة امام المرآة وغم غامض يستولي على نفسها .. تذكرت انها لم تضحك مرة واحدة منذ اكثر من اسبوع . حاولت ان تتذكر كيف كانت تضحك قبل ان تعرفه وفشلت . وقفت امام المرآة لتجرب ذلك فهالها ان الدمع يغطي وجهها .. وانها نسيت كيف كانت تضحك فانفجرت تبكي .. وقررت ان تلجأ إلى أوراقها وتكتب قصيدة كما كانت تفعل دائماً حين تحزن ، لكنها عجزت ونسيت رغبتها في مقابلة النقاد والصحافيين وأصحاب دور النشر ... نسيت كل شيء ... صار نمر كرتها الارضية ، وها هو ينسحب من تحتها ويخلفها للسقوط وحيدة في الفراغ ...

تطلعت إلى السلحفاة لتستأنس بها .. وجدتها وقد انسحبت إلى داخل صدفتها ..

كل العالم ينحسر عنها ويخلفها وحيدة مثل صدفة فارغة على شاطىء منسي في بيروت ! ..

نيشان ! ..

انه لا يستطيع ان يصدق انه استطاع اخيراً ان يمثل بين يدي نيشان . صحيح ان نيشان لم يحتضنه كما كان يتخيل ان اللقاء سيكون ، ولم يضمه إلى صدره ريثما ويسأله عن حال أبيه وحال أهالي قرية دوما فرداً فرداً ، لكنه على أي حال صافحه وطلب منه الجلوس ريثما يفرغ من حديث هاتفي ، وها قد انقضت ساعتان ونصف وهو ينتظر ، ونيشان من هاتف إلى آخر . سكرتيرات يدخلن ويخرجن . رجال يحملون « السيكار » الثخين ، وآخرون مثله على وجوههم الارتباك والحاجة ..

كان نيشان قد استشاط غيظاً وهو يتحدث على الهاتف ، وبدا أبشع من صوره وأكبر سناً . ليس ذلك فقط ، بل ومختلف التعبير : أشد قسوة وفظاظة . لكن فخامة المكان جعلته يشعر بالضآلة ... كانت ارض المكتب مكسوة بما يشبه المخمل ، وكذلك الجدران ، وبدا المكان مثل علبة مخملية ، والمنضدة التي يجلس خلفها نيشان من الزجاج الشفاف تتدلى عليها مختلف المصابيح ، وخلفه لوحة من ازرار تفتح وتغلق الأبواب والدواليب ... احس بانه يطأ عالماً جميلاً وشرساً .. احس كأنه سقط بين فكي زهرة من آكلات البشر : اسنانها من المعدن اللماع ... ولكنه استسلم لمقعده .. كان متعباً متعباً كأنما غسلت بيروت دماغه ، وعذبته طيلة شهر بالغربة والوحشة والحرمان ، وجعلته يتقزم داخل نفسه ضئيلاً ومهملاً مثل صرصار نصف مداس ! .:. سمع في

داخله صوتاً يحرضه على الهرب والعودة إلى قريته وكتبه وخزانته الفارغة المقفلة :
لكن خيل اليه ان قفلها مخلوع والريح تعصف بدفتيها وتتسرب إلى داخلها
بشراسة واستخفاف ..

(لقد نسيني على مقعدي في الغرفة . نسيني تماماً . لا فرق بيني وبين نبتة المطاط التي تزين المكان ، أو اصيص الازهار أو ممسحة الحذاء قرب الباب).

تحول حديث نيشان على الهاتف إلى صراخ غاضب . لم يكن فرح يريد أن ينصت ، لكن الصوت الغاضب اقتحمه ... كان نيشان يرتجف وهـــو يصرخ : « انا الذي صنعتك وانا الذي يستطيع تدميرك ... هل صدقت انك صرت نجماً ؟ .. استطيع استبدالك في أية لحظة بوجه جديد . في كل لحظة يوجد في مكتبي من يحتل مكانك . وابنتي أيضاً ستفك الخطبة .. نعم امتلكها وأمتلكك . لا تصدق نقاد الصحف الذين ادعوهم إلى العشاء فيدبجون المقالات عن موهبتك . انا اعرف وانت تعرف انك لست موهوباً .. أما انا فموهوب في عملي ، ولذا سأكون انا الذي يدمرك ... وسترى ! »

أغلق سماعة الهاتف والتفت إلى فرح محدقاً وكأنه يراه للمرة الأولى . احس فرح بأن ثيابه رثة وشعر بأصبعه يتوتر داخل حذائه حيث الجورب مثقوب ...

تأمل نيشان فرح طويلاً ثم قال له بصوت حاسم كالقدر : « إذاً تريد الشهرة والمال ... يقول والدك في رسالته ان صوتك جميل ! .. »

— ...

— هل تعرف الثمن ، ثمن الشهرة ؟

— ...

— هل انت على استعداد لدفعه ؟ الطاعة أولاً ... الطاعة المطلقة لي ...

كان في صوت نيشان شيء شرس وصارم مثل فرقعة السياط في « السيرك » على اجساد الحيوانات اثناء التدريب .. ولا يدري لماذا تذكر فرح حكاية ذلك الرجل الذي وقع مع الشيطان عقداً بدمه يمنح فيه نفسه للشيطان مقابل

تلبية رغباته كلها ... ماذا كان أسم بطل القصة ؟ لم يعد يذكر ! .. ربما كان اسمه فرح ... ام تراه فاوست ؟ ..

* * *

عاد فرح إلى « فندق العسل » ليلملم حاجياته القليلة وثيابه الرثة استعداداً للانتقال إلى الفندق الذي حجز له نيشـان غرفة فيه ... تأمـل اشياءه الفقيرة القليلة وجمعها داخل الحقيبة ، ثم ترك الحقيبة وخرج من دونها ...

عند باب الفندق كان بائع السمك الملون يقتحمه ببضاعته العجيبة ... كعادته ، وقف فرح مسحوراً يتأمل الاسماك الملونة وهي تسبح داخل اكياس النايلون الشفافة وتنطح جدرانها برأسها دون جدوى ... وفجأة تمزق كيس منها ، وسقط الماء على الرصيف ، والاسماك أيضاً ...

انتفضت الأسماك على الرصيف في الهواء ، قفزت قليلاً مكافحة من أجل الحياة وكانت تنزلق من بين أصابع البائع الذي يحاول عبثاً الامساك بها وايداعها كيساً آخر ... وامتلأ قلب فرح غما وبكى بصمت وبلا دموع .

خرج فاضل بك السلموني من باب قصره في حي اليرزة الارستقراطي في بيروت ، فسرت في الحديقة حركة غير عادية ... ركض السائق وجـاء بـ « الكاديلاك » فوراً من الكاراج ، وتحلق حول البيك بعض ذوي الحاجات . والتصق به مرافقوه يكشون عنه الناس الذين انتخبوه ذات يوم نائباً في البرلمان ... أبعدوهم جميعاً الا رجلاً عجوزاً ضئيل الجسد ، كان يصيح بصوت عال جداً لا يتفق وضآلة جسمه : « قلت لك ان الاسرائيليين أحرقوا محصولي ونسفوا بيتي . تعال وأسكن معنا في أراضيك وأنظر ماذا يحدث ! »

وكان صوته عالياً كأنه مجرد حنجرة كبيرة ، كأن جسده وكيانـه قد استحالا إلى حنجرة ..

رد البيك بصوت هادىء كالقضاء ، لا يرد : « نصحتك مراراً أنت وأهل القرية بعدم ايواء المخربين ولم ترتدعوا ... تسمونهم « فدائيين » وهم سبب خراب القريـة ! « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . »

صرخ العجوز : « وتستشهد أيضاً بآيات الله ؟ .. يا ويلك من ! .. »

ولم يكمل الجملة فقد نزلت على وجهه لطمة أخرسته ربما لوقت طويل ... وربما لانفجار قريب !

قال البيك النائب فاضل السلموني لسائقه : « لن أذهب الآن بـ « الكاديلاك » هات السيارة الصغيرة ! »

وابتسم السائق متذاكياً . فالبيك ذاهب اذن إلى شقته السرية . وجاء بـ « فيات » صغيرة صعد فيها البيك وأشار لحراسه بعدم مرافقته ، فأخرج أحدهم من جيبه مسدساً صغيراً أعطاه اياه حرصاً على حياته الغالية ...

انطلقت به السيارة في الطريق إلى الرملة البيضاء . كان البيك شارداً ، ثم تنبه وقال لسائقه : « لا ، لسنا ذاهبين الآن إلى هناك . خذني إلى بيت فايزة . » « هناك » – فكر البيك – توجد شقته الجميلة الصغيرة ، وهي الآن تضم فراشة جديدة صغيرة . سائحة شقراء منهن ، فهو يفضل الاجنبيات . مع الاجنبيات الصفقة أشد وضوحاً والتخلص بالتالي أكثر سهولة وبلا ذيول ... صحيح أن صديقاته العربيات أكثر حرارة واخلاصاً ، لكنهن غبيات يعشقن فعلاً الرجل الذي يعاشرنه ويتحولن بمرور الزمن من متعة إلى مشكلة ، ولا وقت لديه للمشاكل ... الأجنبية تفهم الحياة أكثر ... خدمات مقابل خدمات. ثم أنهن لا يصدمن حين يطلعن على حاجاته وميوله بالتفصيل بينما العربية تعتبر ذلك شذوذاً .

توقفت السيارة أمام بيت البصارة فايزة . هبط السائق بسرعة يعلمها بوصول البيك ، وخلال دقيقتين كان البيك في الغرفة الصغيرة التي لا نوافذ فيها وأثاث قليل جداً كأن الأرواح والجان لا تحب الأثاث . أو لتترك البصارة متسعاً لها حين تقبل قوافلها ويصير الجو مشحوناً بالحمى والتوتر والارتعاش .

– خير يا بيك ؟

– جئت اسألك في قضية هامة .

– اضمر .

– ضمرت .

تأملته بعينين ثاقبتين فخفض نظره احتراماً لقواها الخفية ولحضور كائناتها السرية ، وركز نظراته القلقة على مسند المقعد نصف المهترىء . ودس يده في أحد الثقوب وبدأ يوسعه بحركة عصبية ... أمسكت هي بقلم ورسمت على الورقة خطوطاً وكلمات ، وهي الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب . وقال هو :

« تماماً . نائلة ، ابنتي ... » وتابعت رسم الخطوط فقال : « ... ونمر السكيني ؟ ما رأيك ؟ هل يتم الزواج ؟ »

أغمضت عينيها وارتجف جسدها ، والروح « العليمة » التي تقمصتها ركضت بيدها على الورق وجعلتها تكتب بلغات الآدمية ، وعادت تستولي عليها فصارت تنتفض بشدة ، وخرج من حنجرتها صوت غير آدمي ، كصوت رجل محشور داخل كفن وقالت : « أرى حزناً كثيراً ... أرى دماً ... كثيراً من الدم ! .. »

ثم صارت تشهق وترتجف كأنها تشهد أمام عينيها مذبحة قادمة من المستقبل ...

بعد دقائق من الهدوء فتحت عينيها ، وكانتا هادئتين تماماً كأنها لم تكن تبكي أو ترتعد ، وانما هو شخص آخر سكنها لبرهة ورحل ...

قال البيك بما يشبه التوسل : « هناك أمر آخر أود أن استشيرك فيه ، هل سيتم ؟ »

قالت : « أضمر ! .. »

وأغمضت عينيها وتركت حضوراً غامضاً يبث كهاربه . وتركت القلم يركض في يدها ويكتب « نعم » .

وفرك البيك بيديه ، ثم أخرج أوراقاً نقدية كبيرة أعطاها اياها ، وانحنى بكل احترام فقبل يدها وخرج مسرعاً ...

حين مضى ضحكت فايزة بصوت عال وهي تحصي الغلة الهائلة ...

انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة ...

وحين قصف الرعد كانت ياسمينة وحيدة ... وبدا العالم متحدياً وشرساً ، وأحست بأنها ضئيلة على بلاط الليل الشاسع ومنسية مثل نملة نصف مسحوقة ... قفز اسمه فوراً إلى حلقها . نمر . نمر . **(من كان يصدق أن الحب يولد في هذه المدينة مجهضاً ؟ .. من كان يصدق أن أصابعه التي كانت تشتعل للمسي صارت كأصابع اليد الكاتبة ، حيادية ومنضبطة ؟) .**

وهي ليست بالمرأة التي تستسلم . ولكن ما جدوى أن تطرد المرأة الاخرى من حياته اذا كان هو لم يعد أصلاً يبالي ؟ ! . **(لماذا لا أتعقل ؟ أعود إلى دمشق . أعود إلى التدريس قبل أن تلقي الشرطة القبض علي بتهمة ممارسة الدعارة أو المساكنة غير المشروعة ؟)** صارت تقرأ صفحات الجرائم بخوف . وحين ترى عنوان « مداهمة شقة » أو عنواناً مشابهاً تقرأ الخبر وقلبها يرتجف مخافة أن يكون اسمها وارداً ...

عاد الرعد يقصف . عاد اسمه إلى حلقها . نمر . **(ترى أين هو الآن ؟ ومع من ؟ وعلى من ينثر حضوره الأشقر الجميل المضيء ؟)** تعرف انها لن تعود إلى دمشق أبداً .. لا نقطة في مياه النهر قادرة على العودة إلى منبعها ...

لقد كان ما كان وانتهى الامر ، وأبحرت في نهر اللاعودة والدم ...

رفعت صوت التلفزيون علّه يغطي صوت المطر والريح ، وقررت أن تركز

انتباهها على شاشته، وعلى الوجه الذي يحتل الشاشة ويغني... هذا الشاب الذي يغني بصوت رجولي حزين تعرفه. لقد شاهدت هذا الوجه من قبل. شاهدته . ولكن أين ؟ أين أين أين ؟ . آه ! لم تعد تذكر . لقد شاهدته . ، وهي واثقة من ذلك . أين ؟ .. لا جدوى ! **(لقد فقدت كل شيء حتى ذاكرتي !)**

يعلن المذيع عن اسم « مطرب الرجولة » فرح . فرح ... كأنها سمعت هذا الاسم من قبل ... هذا موعد عودة نمر الليلية . الساعة تقارب الحادية عشرة . ينبض قلبها كطائر أضيب بطلقة للتوّ . ترى أين يذهب ؟ ان حكاية الاجتماعات الليلية في شركتهم لم تقنعها ، خصوصاً وانه لم يسمح لها بالاتصال الهاتفي به ، بحجة انه « سيقطع الخط » ليتفرغ للعمل. فقط لو سمح لها بحرية استعمال التلفون لما استعملته ، ولكنها كانت ستشعر بأنه حقاً هناك ... انها تقضي ساعات اختفائه الثلاث في عذاب حقيقي . تراه يزور نائلة ابنة فاضل السلموني في بيتها كأي خطيب « جنتلمان » يقضي كل مساء في بيت العروس ؟ لكنه نفى شائعة خطبته . تراه يكذب ؟ .. السلحفاة صامتة لا تحدثها ... تتأملها بعينين فارغتين لا مباليتين .. ولكنها هي تحدث السلحفاة ، فقد شهدت أعراسها مع نمر وتفتح جسدها في ضوء الشمس كوردة استوائية ...

تدور ياسمينة بين أثاث شقة نمر ... تتحسس المقاعد المخملية ، الهاتف الملون ، الجدران المغطاة بالورق الجميل ، مقابض الابواب المذهبة ، زجاجات العطر على التواليت ، ثيابها الجديدة والفرو ... الفرو الثمين الشاسع الذي تحب أن تمدده على الارض وتتقلب فوقه عارية ، وتحس أنها تركض في غابة شاسعة مزروعة بالأشجار الذهبية والرجال الابنوسيين ذوي العضلات المفتولة ، يحملونها فوق رؤوسهم ويرمي بها كل واحد للآخر ، فتستقر أخيراً بين ذراعي نمر وجسده المذهل التكوين والجمـــال . **(ما أبدع جسد الرجل ! لماذا لا تلحظ النساء ذلك ؟ لماذا يصدقن أسطورة ان المرأة ، كحيوان ، أجمل من الرجل ؟ لماذا لا ينظرن حقاً ولو لمرة إلى جمال جسد الرجل وروعة تكوينه ؟ انه اجمل حيوانات الغابة وأعظمها !)** . نمر ... جسد نمر ... انها

تزداد شهية اليه. تمتصه كنحلة تريد قتل ذكرها ... تفترسه كل ليلة كمخلوقات الطبيعة التي تلتهم ذكرها أثناء مضاجعته ، فهي تحبه ، ولا تحس بأنها تمتلكه حقاً الا في الفراش... لا تحس بالأمان ، وبأنه يتحد بها حقاً، الاحينما يخطو داخل جسدها فتغلق عليه أبوابها كقلعة وتحتويه . وتتمنى ألا يغادرها أبداً ... لقـــد اعترف لها بأنه لم يستمتع مع امرأة كما معها ... وبأنه مؤمن بحبها له . فلماذا لا يتزوجها ويتركها تسبح في ملكوت جسده وثرائه وعطوره ؟ .. تأخذ زجاجة العطر وتعد نفسها لاستقباله ... لقد فرغت زجاجة العطر ...

تكاد ترمي بها إلى سلة المهملات ، لكنها تمسك عن ذلك في اللحظة الاخيرة. هذه الزجاجة الفارغة كانت ذات يوم ممتلئة تحتوي أيامها معه ... تتشاءم من رميها وتقرر الاحتفاظ بها . **(كم صرت سخيفة ! أجمع التذكارات والصور وبقايا زجاجات العطر ، وكل أوثان الحب الممكنـــة .. آه كم تشوهت !) ...**

تأخر نمر .. أولئك الرجال لا يعرفون كم تتعذب المرأة التي تنتظر حبيباً تشك أين هو ! كل لحظة تصير مسيرة عذاب في حقل مزروع بألغام التخيلات ولا شيء أكثر نشاطاً من مخيلة امرأة تشعر بالغيرة ... التفتت إلى سلحفاتها وقالت لها : « حين يأتي لن اسأله أين كان . ولن أعاتب ولن أقول شيئاً ... سأتابع خطة الانتظار والصمت ... انتظار سقوط المقصلة فوق رقبتي ... أحس انها هناك وانها ستسقط لكنني لا أستطيع مناقشته في ذلك ما دام ينكر باستمرار. كل ما أملكه هو أن أنتظر اعدامي كي أسأله بعد ذلك لماذا ؟ ! . »

السلحفاة صامتة . صامتة ... لا تملك أي جواب ... لا صوت لها ... انها من كائنات الطبيعة النادرة المسلحة بالصمت . لو ابتاعت قطة ترافقها لاحست ببعض الالفة في موائها . لو كان الجيران هنا ودبين لكانت لها صديقة تبثها أحزانها .. لكن شقة نمر في بناء فخم والناس فيها عدوانيون ومفترسون.. ولو امتلكت كلباً لحاورها قليلاً بعوائه ... ولكن القدر رمى اليها بسلحفاة تهرب من أسئلتها إلى داخل صدفتها ولا تملك لها أي جواب ...

لا أجوبة ... لا أجوبة ... ثم انها تعرف كل الأجوبة الممكنة .. كل ما عليها أن تفعله هو أن تهرب فوراً . تهرب إلى دمشق . إلى عملها . أو تبقى في بيروت وتنضمّ إلى قومها من الكادحين. نمر يمتصها وسيبصقها قريباً وهي تعرف ذلك جيداً في أعماقها . فلتهرب الآن . الآن . فوراً .

في اللحظة نفسها التي وعت فيها موقعها. فتح الباب ودخل نمر وعاد الرعد يقصف، فأحست بأنها وحيدة وضئيلة أمام قوى جبارة لا تملك لها دفعاً .. وركضت إلى صدره تبكي .. وسألها : « ما بك ؟ » ظلت صامتة .

— كل ليلة تستقبلينني بالدموع والصمت . لم تعودي سعيدة . لم تعودي ياسمينة التي عرفتها ...

قررت أن لا تصارحه بشكوكها . قالت « لا شيء . لقد أفسدتني بيروت ... »

— لم تفسدك بيروت . كلكن تتهمن بيروت. بذور الفساد هي في أعماقك، وكل ما فعلته بيروت هو انها احتضنتها وكشفتها ... منحتها مناخاً لتنمو ...

— ولكنني لست مومساً .. اني أحبك .. وفي بداية علاقتنا كنت تلمّح لي عن الزواج ...

— الزواج ؟ ! . أيتها المجنونة ... هل تصدقين انني أستطيع أن أتزوج من امرأة أسلمتني نفسها قبل الزواج ؟ .

— لماذا لا ؟ .. ألم تقل لي مباهياً إنك نصحت والدك بادراج قضية مساواة المرأة بالرجل وتحررها في بيانه الانتخابي حين يرشح نفسه للنيابة ؟ ..

لم يرد، وانما صار يردد بذهول: « أنا أتزوج امرأة ضاجعتها قبل ليلة العرس ؟ أسلمتني نفسها قبل الزواج ؟ »

— لماذا لا ؟ أم انك تفضل أن تفعل كصديقكم نيشان الذي تتندرون عليه باستمرار لان برود زوجته الفاضلة ، كريمة المليونير المغترب ، جعله يعلن عن تفضيله معاشرة الصبيان ؟ .

— أيّتها الوقحة ... اخرسي !

بدا غاضباً ومهتاجاً ، وأمسك بزجاجة العطر الفارغة وتلهى بها قليلاً بصمت ، ثم رمى بها إلى سلة المهملات وغادر الغرفة غاضباً .

بعد خروجه ، انحنت على السلة وأخرجت منها زجاجة العطر الفارغة وضمتها إلى صدرها وهي تبكي... وكان الرعد قد عاد يقصف بشراسة مهدداً ، والمطر يقرع النوافذ كأنه مبعوث اليها ليحملها إلى اصقاع من البرد والغربة والتشرد ... بكت طويلاً ثم خلعت ثيابها واندست إلى جانب نمر النائم ...

(كيف يستطيع أن ينام بسلام هكذا ؟ .. كيف يغرسون حربتهم في قلب المرأة العاشقة ثم يغرقون في النوم دون أن يتفتتوا ويتناثروا أو حتى يتصدعوا مثلنا نحن النساء ؟ !) .

وحين أحس بها ضمها اليه . وشعرت بجسدها يعلن العصيان على عقلها ، وبأنه مثل جمهورية مستقلة لا يملك الا الاتحاد به ... وكان جسدها يحبه ... يحبه ... يحبه . وكان المطر يقرع النوافذ مهدداً . وتمسكت بصدر نمر ، كانت تغرق . يجرفها المطر بعيداً ... وكان نمر قد بدأ يشخر .

انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة ...

وفي « قهوة الليل » كانت الريح تعصف بشراسة . وتهز الصياد صاحب المكان العاري ، في سريره المهترىء ...

وحول المصباح، تحلـــق الرجال ، وضاعت الطـــاولة اليتيمة تحت أيديهم الكبيرة ؛ المليئة بآثار الجراح وعضات السمك والليل والملح . دوى الرعد ، فأشار أبو مصطفى بيده المقطوعة الاصبع إلى البحر ، ذلك المرجل الأسود الذي كان يغلي عند الافق وقال : « الصيد غير ممكن الليلة يا شباب ، فلنعد الى بيوتنا والرزق على الله . »

صرخ صوت : « دعونا على الأقل نسجّل قائمة بمطالبنا. هاتوا قلماً وورقـــة . مصطفى سيكتبها لنا. » وجدوا قلماً ولم يجدوا ورقة ، واخيراً أخرج أحدهم من صدره صرة أكل ملفوفة بكيس أصفر ، وتم فتح الكيس الأصفر ، وتوضيبه كورقة لكتابة المطالب ،وكان في طرفه بقعة زيت كبيرة وآثار بندورة ... ورغم الريح التي تعصف بالورقة فقد استطاع مصطفى أن يكتب بيد مرتجفة :

« كل شيء ضدنا . البحر ملوث . وسائلنا للصيد بدائية ، ولذا نصطاد في الليـــل ونعجز عن الصيد أكثر أيـــام السنة وعن الذهاب إلى عرض البحر . الاسماك تفقد العافية . المجارير تصب في البحر والاسماك تفقد العافية . النفايات بما فيها من تنك تعلق بشباكنا وتقطعها بحافاتها الحادة كالسكاكين ، وهي مصدر رزقنا الوحيد ... »

وانهمر المطر ، وبدأ يغسل الورقة والرجال ، ولم يبد على أحد أنه يهتم بل تابع مصطفى الكتابة : « نحارب على كل الجبهات . الطبيعة . اهمال المسؤولين . الفقر . الصياد بلا ضمانات . انه ملك للمحتكر ككل شيء في هذا البلد . المحتكر الذي يشتري ما نصطاده يفرض علينا السعر الذي يريده . لا تعاونيات . لا برادات ... »

المطر الشرس يغسل الورقة ويمحو الكلمات . لكن الرجال يستمرون ويستمر مصطفى في الكتابة .

« ... ولاننا لا نملك تعاونيات أو ثلاجات لخزن السمك فنحن نضطر إلى بيعه بالسعر الذي يفرضه فاضل السلموني ونرجس السكيني وزمرتهما ...

« الصياد بلا ضمانات . انه معرض للتشويه والموت وتشريد أسرته أو أطفاله ... لا ضمانات له . لا تقاعد . لا شيء ... »

انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة ، ولكن البيك لم يأبه به وانما تابع حديثه الهاتفي قائلاً :

لقد تم اقرار « قانون التقاعد » لنا وللوزراء والرؤساء... ألو ! ... هل تسمعني ؟ .. ألو ؟ .. »

أغلق فاضل السلموني السماعة غاضباً وهو يدمدم « انقطع الخط » ويشتم « كلما امطرت وارعدت تعطل الهاتف » ..

ولكن انقطاع حواره الهاتفي مع صديقه أبي نمر لم يضايقه. كان مسروراً باقرار القانون الذي يضمن للنواب والوزراء وغيرهم من كبار « حماة الشعب » مستقبلهم من غدر الزمان ! ..

وفكر البيك بالبصارة فايزة . لقد تنبأت باقرار القانون . هذه المرأة تعرف كل شيء وهو يعتمد عليها أكثر من أي شيء . حتى حينما كان وزيراً كان يتسلل اليها طالباً المشورة والنصح ! .. وقد التقى ذات يوم برئيس الوزارة خارجاً من عندها ! .. تبادلا السلام محرجين ، مثل قاضيين التقيا صدفة بعد الدوام في حي المومسات ، وتجاهلا الموضوع تماماً ، لكن رابطة ما صارت تشدهما نجم عنها تجمُّع سياسي كانت له انعكاساته الحسنة على مصالح فاضل بك..

« فايزة كلها خير وبركة وعلم . » وعلى هذه النية والحكمة ، نهض فاضل بك يرتدي ثياب السهرة ، وكان الرعد لا يزال يقصف بيروت ، ولم يبدُ عليه انه يسمعه أو يلتفت اليه .

ساح الحبر واهترأ الورق وجفّت حلوق الرجال في « قهوة الليل » ، وابتلوا بالمطر حتّى قاع عظامهم ، وحين دوى الرعد كان أبو مصطفى أول من تكلم : « فلنعد إلى بيوتنا . »

سأله صوت : « من معه ليرة لأستدينها ؟ » سعل أبو مصطفى : « يا ليت ! » وخرجوا من « قهوة الليل » وابتلعهم الليل ...

وحين وصل أبو مصطفى وابنه إلى كوخهم كانت الاضواء مطفأة والجميع نياماً ... دخلا دونما تحفظ في حركاتهما ، فقد اعتاد الجميع النوم أياً كان الضجيج . هذه حال الذين يقطنون غرفة واحدة ويتقاسمونها . انهم لايستطيعون التمتع بترف الانزعاج من الجلبة . ١٢ شخصاً في غرفة واحدة ، هل يمكن ألا يصدر عنهم صوت حتّى ولو كانوا جميعاً غارقين في سبات عميق ؟ اندس مصطفى في ركنه المعتاد ، وأبو مصطفى إلى جانب زوجته الّتي كانت تشخر كعادتها بصوت عال .

الظلام شبه دامس ولكن مصطفى لم يغرق في النوم ... تنبهت أعصابه حين كفّت أمه عن الشخير ، وعرف انهما سيمارسان ذلك من جديد . وحين علت أنفاسها وتسارعت وامتزجت مع أنين أبيه وشهقاته أحس بالعرق يغطي وجهه ... صارت الغرفة الصغيرة مثل رحم واحد من اللحم الحي ، وشعر بأن جدرانها اللحمية تنقبض وتنبسط مثل حركات قلب نابض ، الجدران تعرق وجو الحمى يلف الغرفة ، ويلف جسد مصطفى ، ويداه تحاولان ممارسة

لعبة الجنون الفردية . وأحس بأنه يزحف بجسده العاري فوق جمر لسعه للذيذ، مسترشداً بإيقاع والديه ... وأخيراً هطل المطر الدافىء ، وأحس بجسده يهوي باسترخاء في بركة من اللزوجة الحنون . وصمتت الغرفة ، وعادت الجدران إلى مكانها .. .. وكفت الغرفة عن النبض وزاولتها كهارب الحمى...

(كلما عجز والدي عن الصيد وعاد مدحوراً من البحر يذهب لصيد العصفور الذهبي في حدائق أمي ... والنتيجة فم جديد يجب إطعامه ، وجسد طفل جديد يرتمي في غرفتنا الضيقة ... انه يفرغ ثورته في الفراش ، وأنا آكل نفسي بنفسي . لا أستطيع حتى أن أتحدث إلى الفتاة التي أحب ... القمع في كل مكان . كل ما أستطيعه في هذا الجو الخانق هو أن أكتب لها رسائل الغرام وأرمي بها عند مدخل بيتها حين تعود من المدرسة ، ومثل الجواسيس نتبادل الخطابات .. وأحلم بها في رحلاتي الفردية إلى جنائن التفاح المحرم ، وأحلم بها مدحوراً وعبثاً أنسجها بين أصابعي .. وأبي يعود من رحلته مدحوراً وعلى كتفه طفل جديد) ...

عجز مصطفى عـــن النوم . أحس بأن كـــل شيء ، موجود خصيصاً لقهره ، ولتدمير أي محاولة له للخروج من مأزق الفقر والكبت والقهر ... وبأن رحلاته وحيداً إلى وديان اللذة الانية ستودي به إلى الجنون ...

انسل من فراشه وغادر البيت ، وكان الرعد يقرع صدره بشراسة لكنه لم يبال . لقد اعتزم أمراً وسينفذه . يبدو له وكأنه الحل الوحيد الممكن . انه لن يسقط في بئر اليأس . أجل ، لن يسقط ولن يموت هدراً ...

قرع باب الرفيق نديم... قرع طويلاً ، ثم أطل صوت مسكون بالنعاس : من؟..

— أنا مصطفى . إفتح يا نديم ...

صرير باب . ضوء متماوت . نديم يسأل وهو يرى شباب مصطفى مغسولاً بالمطر والدمع والرعد : « ماذا حدث ؟ » .

— سأنضم اليكم . لم أجد حلاً آخر .

— لن تندم أيها الرفيق . أهلاً بك .

انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة ...

وحينما التمع البرق ثانية التفت طعان إلى الوراء ، وكلمح البصر شاهد وجه الرجل الذي ظـــل ساعات يمشي خلفه . وقرر : **(لست واهماً . هنالك من يلاحقني .)** وانفجر الرعد ، وانفجر الخوف في قلبه .

ما دام هذا الرجل يلاحقه فلن يجرؤ على الذهاب إلى مخبئه في بيت أخيه نواف . سيظل يدور في الشوارع محاذراً الخلفية منها أو المظلمة . سيظل مجرجراً جسده من مقهى إلى آخر ، محاذراً الانفراد . سيظل مسفوحاً على اسفلت المدينة ، مشتتاً وضائعاً ومذعوراً كالمياه الراكضة إلى المجارير . **(هنالك من سيقتلني . هنالك رصاصة تم اطلاقها حـــين اتخذوا في « الجرود » قراراً بقتلي أخذاً للثأر ، ولم يبق إلا ان تستقر الرصاصة في جسدي . ترى أين ستستقر الرصاصة التي ستطلق علي حتماً في ليلة ما ؟ ! . في دماغي ؟ في صدري في القلب تماماً ؟ أم في احشائي ؟ وسأنزف ببطء واتعذب عذاباً طويلاً قبل أن اموت ؟ ولكن لماذا اتعذب ؟ ولماذا أموت هكذا ميتة كلب أجرب وانا لم اقترف ذنباً غير أنني استطعت أن أتابع دراستي وأصير صيدلياً ، دون أن أدري انني يوم تخرجت وحملت شهادتي كنت احكم بالاعدام على نفسي ! اي منطق هذا منطق العشيرة التي ولدت فيها ؟ ! أي جنون ... أي جنون يحكم هذا العالم ؟ !) .**

يوم تخرج طعان منذ أشهر صيدلياً . كان يتحرق للعودة إلى لبنان ومزاولة

العمل . قرر ان يفتح في بعلبك صيدلية يسميها « صيدلية الحنان » .

ابرق إلى اهله يزف اليهم الخبر ، ويحدد موعداً لعودته ، ولكنه فوجيء ببرقية منهم تطلب منه عدم العودة ، وتغفل حتى تهنئته بالشهادة ! اذهله سلوكهم فابرق اليهم بموعد عودته ، واستقل اول طائرة إلى بيروت . في المطار فوجيء بقبضايات العشيرة في استقباله وبينهم من هو مطلوب من العدالة وفارّ من وجهها ، و لا يظهر في الاماكن العامة الا في حالات الطوارىء . كانوا يضمونه بيد واحدة والاخرى في جيوبهم متوترة . (**انهم يقبضون على مسدساتهم . ما هذا الاستقبال وانا المسالم الذي لم يقتل في عمره نملة ؟**) لقد اختار ان يكون صيدلياً انطلاقاً من رقة قلبه المفرطة التي حرمته حتى من أن يكون طبيباً أو جراحاً. انه منذ طفولته يكره منظر الدم . فقد فتح عينيه على بركة من الدم ، دم عمه القتيل . مـاذا حدث حتى يجيئوا اليه إلى المطار حاملين رائحة الدم والدمار ؟ ! .

في السيارة سأل والده واستمع مذهولاً إلى حكم الاعدام عليه بجرم حمل شهادة جامعية ! « لقد قتل ابن عمك مرعب احد افراد عشيرة الخردلية ، أخذاً بالثأر لعمك . والقتيل كان يحمل شهادة جامعية ، ولذا قررت عشيرة الخردلية أخذ الثأر ، على ان يكون القتيل من عشيرتنا أول شاب يفوز بشهادة جامعية . وتصادف ان كان هذا الشاب هو انت ! .. انه التقليد العشائري الجديد في أخذ الثأر . الثأر لقتيل امي بقتيل امي . والقتيل المتعلم لا يثأر له الا قتل متعلم من العشيرة الاخرى ! »

وفكر طعان بحزن : (**لقد دخلت التكنولوجيا إلى فكر العشيرة، وها هم يقدرون العلم !**)

توقف طعان قليلاً امام اعمدة سينما « الحمراء » في شارع « الحمراء » متظاهراً باشعال لفافة ، محاولا التأكد مما اذا كان الرجل لا يزال يلاحقه . كان المطر لا يزال يتفجر وبقايا دفء الصيف تندحر . واحس بغصة غامضة في قلبه . لقد اشتاق إلى المرأة . إلى الحب . إلى السباحة . إلى الغناء . إلى التسكع .

إلى الجلوس في مقهى والاستماع إلى ضحكات الفتيات الصغيرات الجميلات اللواتي يتفجرن دعوة إلى الحب والجنون . تعب من السير في الشوارع مثل أبطال افلام « المافيا » ، متلصصاً وخائفاً . تعب من حمل المسدس الذي لا يجيد حتى استعماله . تعب من الاختباء في بيت شقيقه نواف ، واغلاق الباب بالمتاريس . تعب من اسدال الستائر وتحاشي الوقوف امام النوافذ .

تعب من البطالة وانتظار الموت الذي يجيء ولا يجيء . تعب ... تعب ... تعب . انه يرتجف . يشعر بانه لم يعد يقوى على الوقوف . اللفافة تسقط من يده . الرجل لا يزال يلاحقـــه ، **(ام تراني واهماً ؟ كل رجل في الشارع اخاله يلاحقني ! اعصابي متعبـــة . يجب ان انسحب إلى وكري. يجب ...)** .

أشار إلى أول « تاكسي » . استقله . أدلى بعنوان بيته كمن يفشي سراً خطيراً . في الحقيقة لم يدل بعنوان بيته ، بل باسم الشارع فقط . سيمشي المسافة الباقية ويتأكد من ان أحداً لم يلحق به في « التاكسي » . التفت إلى الوراء . كان نهر من اضواء السيارات يومض . يتأملها بهلع ! .. يحس بأن كل هـــذه السيارات التي تلاحقه مليئة بالرجال الذين أصابعهم على زناد رشاشاتهم ولحظة يهبط من « التاكسي » سيثقبه الرصاص في كل موضع من جسده . وسيرتجف وهو يسقط كأنه يرقص . واذا نجا من الموت في الشارع واستطاع ان يصل إلى فراشه حياً فستحاصره الكوابيس وسيستيقظ على صوت الرصاص وهو يحصده ويحصد شقيقه وأطفالـــه . سيأتي الرجال لقتـــل أهل البيت كلهم . وسيسقط شقيقه نواف قبل ان يتسنى له الوقت لاطلاق رصاصة واحدة .

توقف « التاكسي » . نزل طعان ولاحظ وقوف اكثر من سيارة في الشارع نفسه . أكثر من شخص يلاحقه ؟ ولكن الشوارع للناس جميعاً ! **(توقف سيارة في الشارع الذي اختبيء فيه لا يعني بالضرورة ان سائقها يريد قتلي . لا ! بل يريدون قتلي. اعرف ذلك . لقد متّ يوم حكموا عليّ**

بالموت انتقاماً لرجل لم اقتله ولم اشارك في قتله ولم ار وجهه من قبل ، وها انا اجوجر جسد ايامي المهدورة .)

بدأ يسير بخطى جهد ان تكون هادئة . فشل . ساقاه تسيران بخطى سريعة وترتجفان . يسمع وقع خطوات خلفه . يسرع . الخطى خلفه تسرع ، يده تتشنج على مسدسه . انه واثق من ان شخصاً يلاحقه ويسرع خلفه . الشخص يقترب . يضع يده على كتفه . لا مجال للشك الآن . دون ان يدري ما يفعل، يستدير وقد شهر مسدسه ويطلق النار على الرجل . هكذا دون كلمة واحدة ! ..

يسقط الرجل على الارض . وللمرة الاولى يرى وجهه ويرى نظرة مليئة بالدهشة مرتسمة في عينيه ! لقد قتل ... لقد قتل رجلاً لم يقع عليه بصره من قبل ، وكان القتيل يبدو مدهوشاً ! ..

انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة ...

انتشل فرح نفسه عن جسد الصبية . كان العرق يتفصد من جسده كله ، رغم البرد والمطر الذي يقرع النوافذ . . وانفجر الرعد ثانية . وقالت الصبية : « حاول مرة ثانية » .

اشعل لفافة ولم يقل شيئاً . انه لا يستطيع ان يقول لها انه لا جدوى من المحاولة ، فقبلها كانت على هذا الفراش امرأة اخرى ، وقبلها اخرى ، وفشل معهن جميعهن . سبع نساء في اسبوع واحد ، كل يوم امرأة ، وكلهن فشل في امتلاكهن . (**لم اعد امتلك نفسي ولا جسدي فكيف امتلك جسداً آخر**) ؟ . هو الذي لم تسلم منه بالأمس بقرة ولا خروف في قريته ، عاجز اليوم عن امتلاك احلى النساء ! قالت له بالرقة النسائية المصطنعة في مثل هذه الحالات : « انني احبك . جرّب ثانية . لقد انتظرت هذه اللحظة طويلاً وانا اراك على التلفزيون او اقطع صورك من الصحف والمجلات وازين بها جدران غرفة نومي . تعال يا حبيبي . يا مطرب الرجولة » !

كاد ينفجر باكياً ضاحكاً وهو يسمع لقبه « مطرب الرجولة » . « لقد أطلقه نيشان تحت هذا الشعار : « مطرب الرجولة » . جسد فحل ، وشعر كث عند فتحة العنق . وصوت فلاحي اجش بعيد عن التكلف والتخنث ، وسقطت فتيات بيروت في الفخ . صار هذا الرجل يثير فيهن كل الجوع الممكن إلى عصور الرجال الأقوياء ، البعيدين عن التكلف و « البروتوكول » الاجتماعي

القريبين من العشب والسنابل والزهور البرية. الرجال الذين يصفعون المرأة بيد ويحتضنونها بحنو باليد الاخرى . قال نيشان ان في بيروت جوعاً إلى « الرجل الرجل » ، وهو سيوظفه لمصلحته .وهكذا ارغم فرح على لعب دور « الرجل الحمش » وهو في داخلــه مسكون بالهشاشة والخوف والرقــة . « مطرب الرجولة » ! كلما شاهد هذا اللقب تحت صوره ، التي تصدرت الصفحات الاولى في المجلات ، احس بحاجة إلى البكاء والضحك معاً . وتذكر اول مرة اطلق نيشان عليه هـــذا الشعار : (كنا معاً في « الشاليه » الخاص به .

وكان البحر الخريفي في ذلك اليوم الصاحي يمتد أمامي أخاذاً ساحراً ، وأنا ككل أبناء دمشق وضواحيها اعشق البحر . وتخيلت اجساد النساء تغطي الرمل بصباها العاري طوال الصيف ، وانا ككل رجال العالم اعشق النساء . وكانت مائدة الطعام حافلة بلذائذ الطعام والشراب . ولعبت الخمرة برأسي ، والشمس الخريفية التي لا تزال حارة رغم النسيم البارد . مفعول الخمرة في الشمس يتضاعف مرات ، ولم اكن ادري ما اذا كنت ثملاً بالحياة او بالكحول ! وكـــان نيشان يتأملـــني بنظرة صارمة ، فتذكرت كلمته عن « الطاعة » وقررت ان انفذ كل ما يقول كي استطيع شراء هذا اليوم المشمس على البحر بكل لذائذه ومباهجه . وتمـــددت قليلاً في الشمس على شرفة « الشاليه » تنفيذاً لـ « أوامر » نيشان الذي قال ان السمرة البرونزية شرط اساسي للجاذبية وان اكتسابها جزء من عملي . في الحقيقة كنت اتمنى ان اركض على الشاطىء حراً كحصان سعيد ، لكنه اصر على ان السمرة المطلوبة يجب ان تتم وفقاً لتوقيت الساعة . ربع ساعة اتمدد على بطني . ربع ساعة على ظهري . ممنوع الانطواء كي لا تبقى في جسدي مواضع بيضاء البشرة . انفذ كل الأوامر ، وهو بين الحين والآخر يأتي بزيت البحر ليدلك لي جسدي .

كنت ممدداً على بطني حين بدأ يدلك لي ظهري وفاح عطر الزيت الثمين . وكانت اصابعه تروح وتجيء على جلدي رقيقة ومرهفة كأصابع عاشق اعمى

يتحسس جسد انثاه ثم استحالت قاسية شرسة مثل محراث يدخل في التربة ... ثم فهمت ! ..

في الفراش كنت ثملاً ومدهوشاً في آن واحد . فالأمر لم يكن ممتعاً ، لكنه لم يكن مزعجاً بقدر ما كان يخيل الي . لأجل الثراء والشهرة والمجد واشياء الحياة السهلة والمجانية كل شيء مباح . ونيشان كان لحمه الكثيف المترهل يرتعش حباً وهو يقول : « النساء لا يقدرن على منحي هذه المتعة ايها الرجل الرائع . سأسميك « مطرب الرجولة » . مع الرجولة أحس بالألفة . معهن أحس بالغربة . يمتعني ان اتحد وانساناً اعرفه واستطيع التحدث اليـه واشعر بانه قادر على فهمي . وانا لا افهم النساء ولا يفهمنني ، ولا فرق عندي بين ان اضاجع انثى او عنزة . اما الرجل فشيء آخر . » شعرت انه يحاول ان يبرر . واحسست بشيء من الرقة نحوه ، لكن شيئاً في داخلي كان يتكسر .. يتكسر ... واحسست بانني لم أعد املك نفسي . لقد بعتها وإلى الأبد ... إلى... الشيطان !) .

انفجر الرعد من جديد ...

كانت لفافته قد انتهت . مد يده ليتناول لفافة اخرى ثم تذكر ان نيشان نهاه عن التدخين .

كانت الصبية قد انتهت من ارتداء ثيابها ، واتجهت نحو الباب وفي عينيها نظرة نداء . نظرة تقول انها على استعداد لخلع ثيابها كلها ثانية والمحاولة من جديد لو ناداها . لكنه لم ينادها .

تركها تذهب .

وحينما اطبقت الباب خلفها شعر بأن الباب بينه وبين عالم النساء قد أوصد إلى الأبد !

« **سأسرق التمثال** » هكذا قرر ابو الملا بعد عذاب طويل ...

والواقع ان سرقة التمثال لم تكن صعبة . فموقع الآثار الذي تجري الحفريات فيه مليء بالكنوز الذهبية والفضية التي يتم نقلها أولاً بأول ، بينما تركت القطع الفخارية والرخامية الباقية في الكوخ الصغير الذي يحرسه ابو الملا . سرقة التمثال لم تكن سرقة صعبة عملياً . كان الصعب ان يقنع نفسه بالسرقة . فقد عاش حياته كلها راضياً بالمقدر والمكتوب ، مقيماً الصلاة وحريصاً كل الحرص على راحة البال والتقوى . حتى الفقر لم يكن يحز في نفسه لأنه آمن بأن من البدهيات ان يرفع الناس بعضهم فوق بعض درجات، ولكنه الآن تبدل. منذ اضطرته ضرورات العيش القاهرة إلى حمل ابنته الثالثة لتعمل خادمة وهو يتبدل . منذ وطئت قدماه قصر الحازمية ، حيث تركها ، نبت في قلبه مخلب صار يمزقه في كل لحظة . وحينما كان عائداً من حي القصور الفخمة في الحازمية إلى حي التنك حيث يقطن ، خيّل اليه انه يشاهد المكان للمرة الأولى . بيوت جدرانها من التنك . سقفها من التنك . المطر يقطر من سقفها شتاء على الامتعة القليلة المهترئة في البيت ذي الغرفة الواحدة . لا ماء . لا نوافذ . ذباب فقط وفقر وصراخ الاطفال وشتائم النساء ...

انفجر الرعد .« **سأسرق التمثال** » .

سيسرق التمثال . وسيستعيد بناته . ولماذا يسلم هذا التمثال إلى المتحف إذا كان يستطيع ان يفتدي شقاء بناته بثمنه ؟ تذكر محاضرات المهندس ايام كان

لا يزال يعمل في الحفريات . وقتها كان قوياً كالحصان .

لم يكن قد أصيب بذلك المرض في قلبه . كان المهندس يقول : هذه آثار وطنكم العظيم لبنان . اخرجوها بحرص واحموها من السرقة او التلف اثناء الحفر . انها تاريخكم . »

وطنه ؟ انه لا يزال يحمل في بطاقته الشخصية جنسية « قيد الدرس » ، رغم انه ولد هنا وسيموت هنا ! .. تاريخه ؟ انه لا يعرف غير حاضره الشقي. ثلاث من بناته صرن يعملن خادمات في قصور الاثرياء ، واجرة أولاده العمال لا تكفي ليقيموا اودهم !

« سأسرق التمثال » .

وللتمثال عينان شاسعتان تطل منهما نظرة شريرة مخيفة وساخرة .

قال له نديم افندي ، معاون مدير الموقع ، حين شاهد التمثال : « انه تحفة نادرة . اثمن من كل التماثيل الذهبية التي وجدناها على الشاطىء . » وتوقع بعدها ان يسارعوا إلى نقل التمثال أسوة ببقية القطع الثمينة ، ولكن بدا ان نديم افندي نسيه فجأة. تركوه يجلس قبالته طوال النهار ، والتمثال يحدق فيه بهذه النظرة الشريرة الساخرة . بل انه صار يحدثه ويحاوره . صار يروي له كيف حمل ابنته إلى قصر الحازمية ، وكيف ضربه مرض القلب فجأة . صار يروي كل ما يحدث له ويخطر بباله . وكان التمثال ينصت له باهتمام دون ان يقاطعه ، ثم يرد عليه ، ولكنه لم يكن ليطيّب له خاطره ! كان التمثال غاضباً بطريقة ما ، وكان في صوته تحريض غامض له على ان يفعل شيئاً ما ! سأله مرة بصورة مباشرة : « ماذا تريد مني ان افعل ؟ »

واجابه التمثال : « أريد منك ما تريده الأصوات الحقيقية في داخلك . فتش عنها . انصت اليها . التقطها ومت من اجلها ! أهذه حياة تلك التي تحياها انت وأولادك ؟ ! »

نشأت بينه وبين التمثال علاقة عجيبة ، وصار يلقي عليه تحية الصباح حين يدخل ، بل ويتحدثان حتى عن الطقس . ومرة سأل ابو الملا التمثال عن

قصة حياته : وما كاد التمثال يبدأ بتلاوتها حتى دخل بعض العمال فصمت . وانطلقت شائعة في الموقع الأثري مفادها ان ابو الملا يتكلم وحده . وان اكثر من شخص سمعه !

ويوم جاء أحدهم وقدم له عرضاً سخياً رفض فوراً . لقد طلب منه ان يسرق التمثال لقاء مبلغ خيالي : عشرة آلاف ليرة لبنانية ! عشرة آلاف ليرة ، ومع ذلك رفض ان يبيع رفيقه التمثال ، على ما بينهما من مماحكة . كان التمثال ،الوحيد الذي ينصت اليه ويحاوره باهتمام . ولم يبال الرجل برفضه وانما قال له : « فكر . سأمر بك بعد غد . كل ما عليك ان تفعله هو ان تحمله في جيب معطفك إلى البيت ، ولن يكلفك ذلك شيئاً ، بل ستربح عشرة آلاف ليرة . لا تبلغ أحداً والا ! » واشار إلى رقبته بحركة ذات مغزى فيما ندت عن فمه أصوات تشبه أصوات الذبح .

فهم ابو الملا .

وحين جاء نديم افندي سأله ابو الملا بلهفة : « متى تنقلون هذا التمثال إلى المتحف ؟ اني خائف من مسوؤليته . »

رد نديم افندي بلا مبالاة : « آه ، التمثال ؟ لقد نسيته . نعم . سننقله قريباً . الأمر في حاجة إلى روتين وتنظيم . »

« **سيسرق التمثال** » .

الليلة سيحمله معه ، وسيأتي الرجل إلى بيته فيما بعد لأخذه .

سيسرقه ...

وانفجر الرعد.. .

امتدت يده مرتجفة إلى التمثال وأحس بالخوف . وبدا له التمثال عملاقاً كبيراً ، احس بانه ضئيل وصغير . وما كادت يده تطبق عليه وترفعه من مكانه حتى تسارعت ضربات قلبه واحس بقوة خارقة تستولي عليه . ها هو لأول مرة في حياته يكسر قانوناً او نظاماً أو يرتكب شيئاً محرماً . شعر بلذة جبارة تستولي على جسده ، وبنشوة قوة لا حدود لها . وظل التمثال صامتاً ولم يقل

له شيئاً ، لكن اشعة مخيفة كانت تنطلق من عينيه . ام تراه انعكاس البرق ؟ .

وضع التمثال في جيبه وصار يضغط به على جسده منتشياً . كان كل ما في الغرفة من تماثيل ينوس ويرتجف ويئن ويخفق ... آه !

بعدها بدقائق انهار على المقعد ولزوجة دافئة تستولي عليه . شعر بضربات قلبه تزداد تسارعاً ، وبحيوية عجيبة وانتعاش يملآنه . منذ اصيب بالذبحة القلبية لم يحس بمثل هذه الحيوية . ظل نابضاً ومتوتراً في الدرب إلى بيوت التنك . وداعاً يا بيوت التنك ! من الآن فصاعداً سيعرف درب اللذات وسيعيش . سيسرق ثانية . سيجرب كل شيء قبل فوات الأوان . سيجرب القتل أيضاً . انه لم يقتل انساناً قط من قبل . سيجرب . انه يدفع كل حياته ثمناً ليعاوده ذلك الشعور المدهش لحظة قبض على التمثال ، وكأنه ضاجع بلقيس ملكة سبأ التي يروي قصصها الحكواتي .

في كوخ التنك تمدد والتمثال إلى جانبه . زوجته وبقية اولاده كانوا عند الجيران الذين اشتروا تلفزيوناً منذ أيام . (**عجيب امرنا في حي التنك ! نشتري التلفزيون وليس لدينا في الكوخ مرحاض !**) . هكذا افضل . انه في حاجة إلى ان يكون وحيداً ريثما يأتي الرجل ويستلم التمثال ويدفع له عشرة آلاف ليرة ! لكن التمثال يحدق به بشراسة ساخرة . قلبه يضرب مثل طبل مجنون . ينتابه شيء من الخوف من نظرة التمثال . ليت ذلك الرجل يحضر سريعاً وينتهي الأمر ! يقرر أن ينهض ويغطيه كي لا يراه ، لكنه يشعر بأنه عاجز عن النهوض ، مسمّر في مكانه والأشعة من عيني التمثال تشله تماماً . يقول له معتذراً : « سامحني ! انت الذي حرضتني على ان افعل شيئاً ما . ان اثور واتمرد . لم يكن امامي غير هذا الحل . »

يرى التمثال يكبر . يكبر . يهبط إلى الأرض . له جسد عملاق . يقترب منه غاضباً . يحاول ابو الملا ان يصرخ فلا يجد صوته . انفاسه تتسارع وقلبه المريض سينفجر . يمد التمثال اصابعه إلى عنقه . (**يا الهي ! انه يحاول خنقي ! يريد قتلي !**) لكنه لا يجد في حلقه صرخة استغاثة واحدة. يرى اصابع التمثال

الحجرية تلف عنقه . تضغط ... تضغط ... تضغط . ويشهق ويشهق ثم ... لا يشهق.

حين عادت أم الملا إلى الكوخ وجدت زوجها المريض بالقلب وقد قضى نحبه . صرخت وولولت وركض الجيران . أما الأولا د الصغار فقد وجدوا إلى جانب والدهم الميت على الأرض دمية غريبة الصورة من الحجر . ابتسمت لهم فحملوها وخرجوا يلعبون بها حتى تعبوا . ثم استقرت في بركة من برك الوحل بين أكواخ التنك .

حين عاد الملا ـ عامل اللحام بالأوكسجين ـ إلى الكوخ ووجد والده ميتاً بالجلطة — كما قدر الجميع — لاحظ بعض آثار عنف على عنقه ، فعزاها إلى محاولة أبيه فك ازرار قميصه حين فاجأته النوبة ... وبكى بكاء حزيناً وقال : « قتله الصبر على الفقر ! » صوب لهباً من النار من جهاز اللحام . واشتعل الأوكسجين لساناً مضيئاً فانصهر السقف التنكي . ونفخت الريح من الثقب فاطفأ جهازه . وانهار جالساً ويداه مسدلتان كأنه لا يعرف ماذا يفعل بهما . وتعلقت نظراته بالثقب المفتوح على السماء . كانت السماء سقفاً صلداً من السواد الدامس . ولم تلتمع في الثقب نجمة . وبدأ المطر يدلف عبره ، ونقاطه تسقط فوق جثة الأب ... بالضبط فوق القلب تماماً ، نقطة نقطة كنزف الليل.

تمطر تمطر ...

(حتام يستطيع قلبي احتواء كل هذا العذاب بصمت قبل أن ينفجر ؟).

تمطر تمطر ...

وكانت ياسمينة ممددة على بساط من جلد الأرانب البيضاء الناعمة ... وكانت السلحفاة قابعة قربها فوق جلد الأرنب . **(وحدها السلحفاة تنجو من السلخ ، وتجلس فوق فرو الارنب المسلوخ ! .. الأرنب يركض أسرع من السلحفاة ولكن ما جدوى الركض ما دامت كل خطوة تقود إلى خلل ما ؟) .**

ربما لذلك قررت أن تلعب دور السلحفاة مع نمر ! لم تعد ياسمينة الدمشقية التي تنشر عطرها وفرحها وأغانيها ، واثقة من أن العالم سيحتوي حبها بحب . هنالك « معادلات » أخرى كثيرة تتحكم بهذه المدينة وتودي بكل من يمنح بعفوية إلى الدمار . كل من يركض كالأرنب إلى هدفه يقتل ويسلخ جلده . كل ما في هذه المدينة يعلمها أن تكون سلحفاة — والسلحفاة تصمت وتعرف متى تخفي رأسها وأفكارها — وهي صارت كالسلحفاة ، لكن صدفتها محشوة بالعذاب العذاب العذاب العذاب .

تمطر تمطر ...

وتحس بأنها عارية تحت أسياخ المطر . وحيدة الا من حبها وضعفها ، مستسلمة مثل جنية تواكب نفسها إلى هلاكها . ونمر تحدد موعد زواجه . لم يصارحها بذلك لكنها قرأت النبأ في الصحف ، وقرأت في عيني نمر ليلتها

انتظاراً لاسئلتها أو لدموعها ، ورغم ذلك قررت أن تظل السلحفاة لأنها تحبه.

ويبدو أن الناس في طبقته الاجتماعية يكرهون المصارحة ! كل شيء في أجوائهم المخملية لعبة « بوكر » . من يكشف أوراقه أولاً يخسر . العواطف هنا ليست عواطف . انها لعبة شد حبل . وعلاقة الحب هنا هي علاقة بين اثنين يعض كل منهما يد الآخر : من يصرخ أولاً يخسر . وهي لن تصرخ أولاً . لن تخسر . لا تستطيع أن تخسره ، وستقاتل بكل الصمت الممكن لتحتفظ به أطول وقت ممكن .

تمطر تمطر ...

وموسيقى كارل أورف تفترسها . وتشعر بأن لعبة السلحفاة لا تناسبها. وأنها خلقت لتحب وتعطي ببساطة ، لا لتلعب الحب كالشطرنج . وتمطر وتمطر ... وموسيقى كارل أورف نهر من الجنون . والغرفة تغرق في بحر من الألوان والأنفاس المحمومة السرية . والسلحفاة تنهض عن جلد الأرنب ، تخلع صدفتها ، تقف عارية وهي تتمطى فرحة بجسدها . تستحيل السلحفاة شفافة وترقص . ترقص ... تبدأ بالطيران في فضاء الغرفة وهي تغني ، وتصطدم بالنوافذ باحثة عن مخرج خلف النوافذ ...

تمطر تمطر ... وهو يقود سيارته في طريقه اليها .

(تراني أحبها ؟ ! .

هل يمكن أن أحب ، أنا نمر ابن فارس السكيني ؟ .. أنا أحب فتاة فقيرة ، جاهلة بقواعد السلوك الاجتماعي ، سيئة الذوق في اختيار ثيابها ، أسلمتني جسدها بلا زواج ؟ ! . حب حب حب . هذا كل ما تتحدث عنه أو تفهمه . بالنسبة الي هنالك علاقات جنسية لا بأس من استعمال لفظة حب قبل ممارستها ، وهنالك علاقات زوجية أهم ما فيها تناسبها مع أوضاع والدي السياسية والمالية وأوضاعي . كل العاهرات اللواتي ضاجعتهن كن يتحدثن عن الحب ، لكن هذه أكثرهن اصراراً . تراها صدقت كذبتها ؟ ! تراها تتوهم انها تحبني حقاً ، وان الحب موجود حقاً ؟ ! .

ولكن ، إذا كنت أرفضها تماماً ، إذا كانت لا تمس وتراً منسياً في نفسي فلماذا يهمني مصيرها ؟ لماذا لا أطردها من الدار وانتهي منها ؟ ..

أحبها ؟ اشم في عطائها عبيراً لم أعرفه من قبل مع بنات طبقتي ، أم تراني أخشى أن تكون صادقة في حبها فتنتحر وتسبب لي فضيحة ؟ ! .

ولكن لماذا هذا الهراء كله ؟ لم يسبق لي أن أضعت وقتي في التفكير في أمور النساء ! اني أفكر فيهن حين أكون معهن . حضورهن الجسدي وحده يشدني اليهن ، ومتى غبت عنهن يتلاشى وجودهن من نفسي . ثم ان لدي مشاغل أخرى . تكفيني متاعب العمل التي يخلقها مصطفى السماك ! منذ ان

انضم ذلك الولد إلى الصيادين والمتاعب تتوالى . تطويعهم لم يعد سهلاً . صاروا يستعملون ألفاظاً خطرة مثل الكرامة والحق والعدالة ... الأوغاد !

حب ؟

حتى ولو كان حباً ، فليس في حياتي متسع لهذه الاشياء . وإذا كنت ليناً مع ياسمينة ، متفهماً لعواطفها ، فسيستتبع ذلك أن أتفهم عواطف مصطفى وكل من حولي . وسأفقد سمعتي ومركزي وثروتي . لا ، كل ما يربطني بها هو انها شهية في الفراش !)

تمطر تمطر ...

يقف أمام الضوء الأحمر . يقترب منه متسول صغير يستجدي رغم المطر . يتضايق ويمضي بسيارته رغم الضوء الاحمر ! ..

(أجل ، انها شهية في الفراش . شهية لكثرة شهيتها إلى جسدي ! ليست خريجة معاهد الجنس في ستوكهلم ولكنها تملك حدساً مذهلاً ازاء جسد الرجل ، كأنها تدربت على ذلك أعواماً . انها تتقن ارتشافي كجارية تدربت طويلاً في قصور السلاطين الامويين . ربما كان ذلك في دمها ! ربما كانت النساء الدمشقيات ، كما يشاع عنهن ، يتوارثن تلك المعرفة في دمهن ، أماً بعد أم ! معرفة الاستمتاع بالرجل وامتاعه . لا أظنني سأتخلى عنها نهائياً . سأسلمها موقتاً لنيشان ، وسأتجنبها في فترة زواجي الأولى تحاشياً للفضائح ، لكنني سأعود اليها . اللعين نيشان ! ليته يتم الصفقة ؟ انها في ذروة حالات اليأس . أرجو أن يصعقها بثرائه ، فهي رغم كل ادعاءاتها عن الحب تحب النقود أيضاً ، وسترضخ لأي شيء تحت تهديد الفقر . ولكن لماذا ألومها ؟ أنا أيضاً أحب النقود ، والا لما قبلت بالزواج من نائلة ، تلك السنجابة البليدة !)

* * *

حين وصل نمر إلى شقته ملتمساً الدفء ، أذهله أن يجد النوافذ كلها مفتوحة ، والريح تعصف مسعورة ، وياسمينة واقفة أمام احدى النوافذ ، بردائها الأبيض الشفاف ، مثل فراشة تتأهب للطيران .

سألها بغضب : « ما بك ؟ »
قالت بصوت شبه مسحور : « لقد طارت السلحفاة ! »
صرخ بها : « أيتها المجنونة ، لماذا رميت السلحفاة من النافذة ؟»
— لم أرمها ... قلت لك انها طارت ... اكتشفت أجنحتها وطارت !
قال بمزيد من الغضب : « ارتدي ثيابك بسرعة ! سنذهب إلى السهرة الكبيرة في بيت نيشان ... قد يجعل منك نجمة سينمائية ... من يدري ! ؟ »

* * *

كانت شقة نيشان السرية « جارسونييره » صَدَفَة من جنون وخمرة وموسيقى وزعيق . وكان كل شيء يرتجف ويرقص حتّى الاضواء .

كانت هنالك فتاة عارية يرسم أحدهم على جسدها بدهان ملـــون وبأصابعه ، بينما تتعالى صرخات الاستحسان للرسم المناسب في الموضع المناسب! وكانت هنالك مزهرية مرمرية مملوءة بالشمبانيا مثل كأس شاسعة ، تسبح فيها فتاة عارية تماماً . وكانت هنالك زنجية عارية تراقص « بلاتينية » عارية . وكان هنالك أيضاً رجال من الذين تشاهد صورهم في المجلات ، يتحدثون رغم الضجيج ، غارقين في حوارهم ، غير مبالين بكل النساء العاريات المسفوحات على الأرض كالمياه الاسنة في الشوارع ! .. وفكر نمر :

(« بزنس از بزنس » . العمل أولاً ! في سباق الذئاب لا مكان للحب أو الرحمة . من يسمح لنفسه بالضعف يلتهمه باقي القطيع ويتابع ركضه .)

وأحس بنفسه قوياً وقاسياً وهو يقدم ياسمينة إلى نيشان ، رغم غصة غامضة في أعماقه تكاد لا تدرك ، وقد ظنها حرقة في معدته فقرر ألا يفرط في الشراب الليلة !

ومد نيشان يده المرصعة بخاتم ماسي كبير يؤكد انه رجل أعمال كبير جداً ، وحين صافحها كان ليده المترهلة ملمس ضفدعة ميتة لزجة !

أجفلت . للمرة الاولى في حياتها ترى مكاناً كهذا ، وهذه أول مرة يصطحبها نمر إلى مدينة العري بدلاً من ان يحتفظ بها لنفسه . انها النهاية !

وتقرر أن تنفرد بنفسها . تدعي أنها ستصلح من زينتها ، فتعتذر من الرجلين راكضة إلى مرآة الحمام . ما تكاد تنهض حتى ينفجر الرجلان في ضحكة متواطئة . ويقلد نيشان لهجة نمر : « شكراً لدعوتك المفاجئة غير المتوقعة ! ما هذه الطلاقة في الكذب ؟ كدت أقول لك : ولكن السهرة كلها أقيمت لتسليمي البضاعة ... عفوا المدموزيل . مدموزيل ؟ ! ثلاثة شهور وهي تركض كالغزالة في فراشك ولا تهدأ . تشرفنا مدموزيل ! » يضحكان.

يسأل ببعض الفخر : « ما رأيك فيها ؟ »

يقول نيشان باحتقار : « بدينة بعض الشيء ، ولا تعرف كيف ترتدي ثيابها أو تتحرك . انها مثل غانية من الدرجة العاشرة ورثت ثروة ولكنها تجهل معنى الاناقة . هذا « الديكولتيه » الواسع يفضح وضاعة ذوقها .

ــ ولكن صدرها جميل ومثير ! ..

ــ أنت تعرف أن صدرها لا يهمني . النساء لا يستهوينني . المطلوب منها أن تظهر معي ومع فرح في الاماكن العامة لا أكثر ، حفظاً للمظاهر . المطلوب منها فقط أن تحسن ارتداء ثيابها . إنها ، على ما يبدو لي ، تحسن خلع ثيابها فقط ، وهي خدمة لا أطلبها منها ! »

يسأل نمر بقسوة من اعتاد على التعامل مع الصيادين وقمعهم : « هل تأخذها أم أفتش عن صديق آخر يسدي الي هذه الخدمة ؟ »

يرد نيشان بصلابة مشابهة وقد فقد الرجلان كل عذوبة « كرافاتاتهما » الحريرية والعطر الذي يفوح منهما ، وصار لعينيهما بريق رجلين يقتتلان في منجم : « سآخذها بشرط أن تتفاهم مع عمك المقبل فاضل بك السلموني على أن ترسي المناقصة علي . خدمة مقابل خدمة . ياسمينتك لا تستهويني ، وسأجعلها عشيقتي موقتاً لأجل العمل لا أكثر . »

ــ مفهوم . سيكون أول ما أفعله بعد الزواج تأمين الصفقة لك و ...

ــ واستعادتها . يبدو انك لا تزال راغباً فيها بطريقة ما !

وقطعا حديثهما حين عادت ياسمينة وقد صبغت شفتيها بلون أحمر فاقع .

واشمأز نيشان وهو يتأملها : **(ما أبشع النساء ! يتركن على الوسائد بقعاً من الكحل والأحمر ، ويلطخن الشراشف غالباً بأشياء أخرى ! الرجل جميل ونظيف ولا يخلف الاقذار خلفه . انه أجمل حيوانات الطبيعة وأروعها ! ولكن ضرورات العمل تقتضي مغازلة هذه البقرة . فليكن ! « بزنس از بزنس » ، وامبراطوريتي سأبنيها بأي وسيلة .)**

ضايقته رائحة العطر النفاذة جداً التي فاحت من ياسمينة بعد عودتها ، رغم كل الروائح الأخرى التي كانت تطغى في المكان مع الموسيقى .

قال لها برقة : « رائحة عطرك رائعة . »

بعفوية أخرجت زجاجة عطرها وسكبت على يده منها . أجفل كمن لسعته أفعى . هذه البقرة الصغيرة لا تستطيع أن تفهم كم هو يحب جسده ويرعاه ! العطر يحرق الجلد ، وهو لذلك لا يستعمله الا بشكل « سبراي » (رشات) وعلى ثيابه فقط ! انها ليست مرهفة على الاطلاق . كأن حواسها كلها معطلة باستمرار ، الا في الفراش ربما ، ولكنه ليس مهتماً بذلك على الاطلاق . فرح يستولي على شهواته كلها . فرح بجسده القروي القوي ...

سأله نمر : « ما أخبار نجمكم الذي أطلقته شركتك للعلاقات العامة ؟ »

أجفل نيشان : « هائل . لقد ضربت اسطوانته الاولى كل أرقام المبيعات السابقة . حفلته في « بيسين عاليه » جلبت ايرادات خيالية . انه عجينة طيعة في يدي . علّلته انه كان « غاوي » قراءات فلسفة ، لكنه سيشفى قريباً من مرض التفكير والحساسية . »

« المصباح السحري » يشق دربه إلى عرض البحر ورذاذ الموج يغسل وجوه الرجال ...

لا يدري مصطفى سبباً للضيق الغامض الذي يجثم على صدره الليلة . انه لم يعد حزيناً من أجل أسماك المحيط . لم تنكسر العلاقة بينه وبين كائنات الطبيعة ، ولكنها نامت ، وحلت محلها رابطة تشده إلى المعذبين أمثاله وأمثال أبيه من فصيلة أسماك الأرض ، أولئك الضائعين في سراديب قسوة الحياة في بيروت مثل أسماك مرغمة على السباحة في المجارير رغم شوقها إلى الحرية والشمس والماء النقي ! صار مشغولاً بالحرب مع آل السكيني والسلموني وطبقتهما التي تسرق اللقمة من أفواههم . لم تعد أذناه ، الرومانتيكيتان سابقاً ، تلتقطان أنين السمكة الساقطة في الشبكة ، بل صارتا مشرعتين لانين الناس حوله ، ولانينه الشخصي ، لانين الرجال الذين يقتحمون البحر والليل والمخاطر بينما يغفو نمر السكيني وأمثاله في يخوتهم !

والده مثلاً ، سمكة التعب الكبيرة ، وجهه محموم منذ الصباح ، والدم الذي يبصقه مع سعاله لم يعد وردياً . صار أحمر قانياً . هوسه بحكاية المصباح السحري بدأت تتحول إلى جنون مطبق : انه واثق من لقاء الجني قبل موته ! عبثاً حاول اقناعه بعدم الخروج الليلة . لقد أصر ، بل وأحضر معه أصابع الديناميت الممنوعة . انه محتضر ومجنون . يا لها من ليلة ! للمرة الأولى يصيد بالديناميت بعد حادثة قطع أصبعه .

يتأمله . يراه رغم الظلام النسبي . ويرى العرق يتفصد من ملامحه . مثل مقامر يضع في ضربة واحدة كل ما يملك . يقامر مع القدر والريح ، ويلعب الروليت مع البحر ...

أجل ، لوالده وجه مقامر ، خصوصاً الليلة . ربما كانت الحمى . وربما كان شيئاً آخر ! ..

ابو مصطفى صامت تماماً . انها ليلة العمر وضربة العمر . طوال عمره وهو شبه واثق من أن جني المصباح ليس بعيداً ، وانه لا بد وان يصطاد المصباح السحري ذات يوم وتتحقق كل رغباته وينعم بالسلام الداخلي والغبطة . اليوم أكثر من أي وقت مضى يحس بقرب جنّيّ المصباح منه. كلما ازدادت ثقوب رئتيه في الشهر الماضي كلما ازداد احساساً بقرب الجني وبكنهه ، كأنه يلازمه بطريقة ما .

ثلاثون عاماً وهو يركض على الأمواج بحثاً عن الجني . ثلاثون عاماً وهو يرمي بشباكه ثم يتحسس بيديه محتواها لعله يجد المصباح ! .

انه محموم محموم ، لكنــه يحس ان المصباح قريب قريب ، وان المعرفة باتت وشيكة ، وأن اللقــاء محتوم محتوم . فقــد قضى عمره وهو يسعى اليه ...

رمى بشباكه . أشعل فتيل الديناميت . الحزمة كلها دفعة واحدة . وقبل أن يسمع صرخة ابنه والرجال قفز بها إلى الماء . ها هو جسده كله حزمـــة ديناميت لصيد المصباح ..

دوى الانفجار مع صرخة مصطفى . اصطخب الماء ثم هدأ كل شيء دفعة واحدة . اصطبغ الموج بلون أسود . طفت على السطح جثة ممزقة بين الشباك الممزقة . رفع الرجال الشباك . خرجت جثة ابو مصطفى كسمكة نادرة مضرجة بالدم ، مختلطة بنتف الثياب وبأشياء غامضة مكسرة وبقايا ... وخيل إلى مصطفى أنه يرى بين البقايا حطام مصباح عتيق عتيق ، أم تراها بعض عظام والده مغسولة بالدم ؟ ! . وخيل اليه انه يرى عموداً من الدخان والرماد

يتصاعد من بقايا أبيه ثم يتلاشى في الفراغ المعتّم البارد، مثل دخان جني قبل التلاشي الأخير . ولمعت في رأسه معرفة شبه أكيدة ، فصرخ يخاطب جثته الممزقة ويبكيها : « ولكنك لم تعرف قط كيف تخرج من القمقم ! وما كنت تفتش عنه لم يكن في أعماق البحر بل في أعماقك ! »

وانفجر يبكي ...

قال المحامي لطعان : — وضعك سيء جداً . لقد قتلت رجلاً لا تعرفه دون أي مبرر !

— قتلته دفاعاً عن النفس .

— لكنه لم يكن يحمل سلاحاً !

— قتلته لانه منهم . يريد الاستدلال على مخبئي لقتلي .

— ولكنه كان سائحاً أجنبياً غريباً . لعله ضل الطريق وحاول أن يسألك عن الدرب !

— مستحيل !

— أثناء احتضاره في المستشفى قال انه حاول سؤالك عن الدرب فرددت عليه برصاصة !

— اه ! اه ! اه ! اه ! اه !

وسقط رأس طعان بين يديه . لقد نجحوا في النتيجة في قتله ، بطريقة ما . أرادوا قتله لأجل رجل لم ير وجهه قط ، ودفعوه ليقتل بنفسه رجلاً لم ير وجهه قط ! ثم ها هم يشدونه إلى المشنقة ليقتله رجل لن يرى وجهه قط !

لحظة استيقظ فرح من نومه سمع صوتاً في أعماقه يصرخ به : « اهرب ... اهرب ! اترك كل شيء وعد إلى قريتك . أهرب ! . »

رغم أقراصه المنومة لم ينم جيداً . منذ فقد القدرة على الصلاة وعلى مضاجعة النساء لم يعد يعرف النوم . صار أيضاً يسمع أصواتاً كثيرة في داخله — كأنها صوته وليست صوته — ويجد نفسه يرد عليها بصوت عال عال ، نيشان أيضاً حذره من عادة الكلام وحده . انه لم يعد ينام لكنه لم يعد يستيقظ . يحس بانه في كابوس مستمر ، لا هو حقيقة ولا وهم ولا حياة ! انه يمارس شيئاً يشبه الحياة ولكنه ليس بالحياة ! تذكر أن عليه اليوم ان يذهب إلى الحلاق لشراء « بيروك » من أجل عقده الجديد لبرنامجه التلفزيوني . ثم الخياط . ثم الغداء في مطعم « اللوكولوس » الفخم مع نيشان .. ثم أقراصه المهدئة لينام استعداداً لسهرة رأس السنة ... حين وعي برنامجه لذلك اليوم داهمه ضيق شديد . وقـرّر : (لا أريد ان أحيا هذا النهار أيضاً .) سكب كوباً من الويسكي بدلاً من كوب اللبن الذي حمله اليه الخادم . ابتلعه دفعة واحدة مع قرصين منومين ، وعاد إلى فراشه وقد قرر أن ينام حتّى صباح الغد ..

في مطعم « اللوكولوس » الفخم جلس فرح شبه مخدر . رغم الدوش البارد وصفعات نيشان والحبة المنبهة التي ابتلعها فهو لا يزال يحس بالدوار . لقد جره نيشان من فراشه مثل كلب صغير ، وأفهمه انه راهن عليه ولن يسمح له بالانسحاب من السباق . وصفعه ثم قبله ثم صفعه ثم قبله ثم أمره بارتداء ثيابه ثم جره إلى المطعم لان منتج فيلمه الأول يريد أن يراه ..

ها هو يأكل الطعام الفخم الذي طالما شاهد صورته في المجلات وحلم به ، لكنه لا يحس له طعماً في فمه أكثر مما في حزمة من التبن من طعم !

الفتاة التي تجلس معهم على الطاولة صامتة . قدمها له نيشان : « مدموزيل ياسمينة . » تأملها بعينين غائمتين . خيل اليه انه شاهدها من قبل . أين ... أين ... أين ؟ لم يعد يذكر .

وهي أيضاً عادت تتأمله وتحاول أن تتذكر أين شاهدته ، ولكن أفكارها كانت تتشتت دوماً لتعود إلى نمر . ترى أين هو الآن ؟ ومع من ؟ ولمن يبتسم وينثر ضياءه الاشقر ؟ هل انتهى كل شيء وعليها ان تبقى مع نيشان ريثما يسلمها بدوره لرجل آخر ... وآخر ... وآخر ؟ ..

قال فرح لياسمينة : « يخيل إلي انني شاهدتك من قبل يا مدموزيـــل ياسمينة ! »

قالت ياسمينة لفرح : « وأنا أيضاً يخيل الي انني شاهدتك من قبل » . وأضافت وهي تتأمل بيروت من النافذة من بعيد :

— « ما أجمل هذه المدينة من بعيد ! »

همس فرح : « أجل ! من بعيد ... من بعيد ! »

ولم يتحاورا بعدها . كان الحوار من نصيب نيشان والمنتج ، فراحا يراقبان ما يدور صامتين وبائسين ، ينطلق من وجودهما سحر الفراشات لحظة الاحتراق بالاضواء .

ولم يتذكرا انهما كانا رفيقين في « التاكسي » الذي أقلهما ، منذ أشهر ، إلى بيروت .

كأنهما صارا شخصين آخرين !

اليوم عليها أن تقرر : الانتقال إلى شقة نيشان أو ... الفقر ! تدور في شقة نمر الفخمة مذعورة . لا شيء يخيفها كالفقر . وهي قد اعتادت الحياة السهلة خلال الشهور الماضية ، ولم تعد قادرة على العودة إلى حياتها الكادحة ، بعد أن ذاقت طعم اليخت و « الشاليه » و « الكافيار » .

كان الطقس جميلاً ومشمساً . فخرجت بعد الظهر تتمشى علّها تجد ذاتها . فما وجدت الا الرعب .

مرعب منظر الفقراء المكومين في فسحة من الأرض المهجورة — الا من القمامة — بين قصور « الرملة البيضاء » . لا سيما وانهم هناك بقصد النزهة ! .

مرعب منظر الزحام على « الكورنيش » ، والناس يفترشون الأرض ويأكلون البزر ويستمعون إلى « الترانزستور » والاطفال يتقلبون على أوساخ الرصيف ..

شاهدت امرأة حاملاً تلاحق طفليها . بينما جلس زوجها على كرسي ممزق يتأمل البحر ويدخن نارجيلته وقد تدلى كرشه . هذا أفضل مصير يمكن ان ينتظرها اذا تزوجت من طبقتها . هي لا تستطيع أن تتحول إلى امرأة تقتات بالضجر وصراخ الاطفال وشخير الزوج المتعب . لا تستطيع أن تحيا من دون الرعشات ، والفراش العريض المغطى بالفرو ، والقبل الخاطفة في السيارات « السبور » ، والمضاجعة داخل ماء البحر من خلال فتحات « المايوهات » الثمينة !

ركبت « التاكسي » وهربت عائدة إلى شقتها ، بالأحرى شقة نمر الفخمة . حين هبطت من « التاكسي » على الرصيف المقابل لبيتها وتأهبت لقطع الشارع ، جاءت سيارة « سبور » تهدر مسرعة وكادت تجتاحها . ونجت هي ، لكن طفلاً كان يقطع الشارع مثلها صدمته السيارة وطوحت به في الهواء وقذفته بعيداً ... وظلت راكضة ولم تتوقف لترى ما حدث له ! ..

لم تقو على الذهاب إلى الطفل لترى ماذا حدث له . جسده لم يتحرك ولم يصدر عنه أي صوت . وجدت نفسها تنهار على الرصيف باكية باكية ... ما أقسى هذه المدينة ... ما أقسى أهلها وسكانها ومالكي سياراتها ! **(هذا بالضبط ما حدث لي : لقد دهسني نمر بسيارته دون ان يتوقف ، والآن عليّ أن أتدبر أمري وحيدة !)**

الآن عليها ان تقرر : الانتقال إلى شقة نيشان أو إلى شقة أخيها . عليها أن تختار نهائياً بين ان تكون عاشقة فاشلة أو مومساً ناجحة . وتكومت على الأرض وأغلقت عينيها محاولة التقاط صوتها الداخلي الحقيقي ...

عادت إلى شقة أخيها . لم يكن في حقيبتها نقود . فقد كف نمر منذ أسابيع عن اغداق المال عليها كجزء من خطته للتخلص منها وتسليمها لسواه ، وهي خجلت من أن تطلب نقوداً من نيشان .

لقد نسيت شقيقها في غمرة عذابها طيلة الأسابيع الماضية . ولم تكن على أي حال تملك نقوداً لتمنحه بعضها .

فتحت باب الشقة نصف الفقيرة .ولم ينقبض صدرها وهي ترى مقاعد القش الحقيرة ، والجدران عارية من الورق والمخمل ، وبلاط الغرفة لا يغطيه السجاد العجمي أو « الموكيت » ذو الريش الطويل الذي تغوص فيه الأرجل العارية . شعرت بالحزن فقط لفراق نمر . حزن حقيقي لايفوقه شيء . حزن شفاف شاسع كسماء الصحراء . حزن لايشبه ألم مدمن حرموه مخدره ، وانما حزن من خانه العالم بأسره وهوفي ذروة صدقه وعطائه ! ..

للمرة الاولى تعي حقاً معنى ان تكون من دون نمر ... بالنسبة اليها كان الامر بسيطاً : لقد عرّت أعماقها المملوءة بالحب للشمس ، ومنحت .. ومنحت ... وظلت تمنح رغم إحساسها بأن أشياء أخرى كثيرة تتحكم بالعلاقات في هذه المدينة ، ولكنها لم تصدق أبداً ان فراق نمر عنها ممكن . لقد التحما معاً ولو في لحظة صدق واحدة . انصهرا معاً . وكانت تظن ذلك كافياً ليشدهما دائماً ! وحتى في أيام بؤسها الأخيرة لم تكن لتصدق انهما سيفترقان . كانت تحس بالفراق إحساساً غامضاً ، كاحساس الطريدة ببندقية

صياد مختبيء خلف الأشجار . لكنها الآن للمرة الأولى تشعر بالرصاصة تستقر في قلبها ، لا بل في دماغها . فخلف حزنها الشفاف كالضباب ، المهيمن كالضباب . تفور أشباح أسئلة لم تمر برأسها قط من قبل : **(لو ... عرفت رجلاً آخر قبل نمر ، لو سمحوا لجسدي بأن يعيش علاقات سوية في دمشق ، هل كنت أضيع إلى هذا المدى ؟)**

ولكن ما جدوى الاسئلة الآن وهي تتعذب والحزن يرسل في حواسها أذرعه الاخطبوطية التي لا فكاك منها ؟

كم هي وحيدة ! ليت شقيقها يحضر ! انه الصديق الوحيد الممكن . كان يجب أن يكون كذلك من زمان ، ولكن ...

فرحت حين دخل شقيقها . فوجيء بها وامتلأ وجهه غضباً . تذكرت انها لم تدفع له نقوداً منذ أسابيع . لم تدفع ثمناً لصمته عن الشرف الرفيع ! صرخ بها : « حسناً فعلت بمجيئك للدفع ... لا أملك قرشاً واحداً للسهرة » .

— ولا أنا .

— كيف ؟ ونمر بك السكيني ؟ ! .

— سيتزوج .

— أيتها الكاذبة الحقيرة ! إذاً بدأت بالعمل لحسابك الخاص وصار لك أكثر من عشيق ؟ ! .

هجم عليها . انتزع حقيبة يدها . لم يجد شيئاً . اهتاج . بدأ يضربها على وجهها ضربات سريعة متلاحقة ويشتمها سائلاً : « أين النقود أيتها الساقطة ؟ أين ؟ أين ؟ »

وبدأ الدم يتدفق من وجهها . ووجدت نفسها كالنمرة ترد الضربات دونما وعي وانتابه ما يشبه الجنون حين سقطت يدها على وجهه فصرخ بها : « أيتها القذرة وتضربين أيضاً ؟ سأذبحك ... سأذبحك . ! »

وأرادت أن تقول له : « سأدفع غداً ... لا داعي للتظاهر فجأة بالدفاع عن الشرف الرفيع » ، لكن فمها كان مملوءاً بالدم . وقبل أن تقول شيئاً

كانت السكين تغوص في صدرها . ولم تشعر بشيء غير الدهشة ! ..

نصف ساعة ... ثم دخل الشقيق إلى أقرب مخفر . كان يحمل معه سطلاً مغطى بجريدة . جلس أمام الضابط المناوب . كشف الجريدة عن السطل وأخرج منه رأس أخته المقطوع وهو لا يزال ينزف ، وقال بصوت رجولي :

« لقد قتلت اختي دفاعاً عن شرفي ، وأريد أن أدلي باعترافات كاملة ! »

ومضت في عيني الضابط نظرة اعجاب ولكنه أعاد الرأس المقطوع إلى السطل وغطاه بخوف ! وبدأ الأخ يدلي باعترافاته والكاتب يسجلها وفي عينيه أيضاً نظرة تقدير !

وكان الضابط ينصت إلى الاعترافات ، وحينما سمع اسم نمر ، ابن نائب منطقتهم ، نهض إلى الهاتف في غرفة مجاورة ، وبعد لحظات كان يفح كالأفعى :

« أبو نمر بك ، آسف للازعاج ولكن الأمر خطير ! .. »

وبدأ يروي بعض ما يدور ، ثم ختم المحادثة بقوله :

ـ طبعاً ، طبعاً ، سأحتفظ بالمحضر . لا ، لن أسربه إلى الصحف أو أي جهة أخرى ، ولن أكتب تقريري الا بعد أن تحضرا . أمرك سيدي ! .. أمرك فارس بك ... أنا زلمتك .

صفعتان على وجهه .

« أنا نمر فارس السكيني يا كلب . كيف تدعي أنني لطخت شرفك ؟

— . . .

— شرف لك انني ضاجعت أختك ، أنا ابن السكيني ...

— . . .

— المحضر الأول تم اتلافه . سيعيدون الآن استجوابهم لك ، وستردد ما سبق وقلته من انك قتلتها من أجل الشرف ، ولكنك ستنسى اسمي تماماً ...

— . . .

— ستقول انه كانت لها علاقات مع رجال عديدين . لن تذكر اسمي بل ستتهمها بممارسة الدعارة مع مجهولين عديدين . ستنسى اسمي تماماً ...

— . . .

— ستنسى اسمي تماماً ...

— . . .

— سيثبت تشريح الجثة انها لم تكن عذراء ... وسأوكل لك أفضل محامي البلد ... ولن تحكم بأكثر من آشهر عديدة تنسى اسمي خلالها ، لا في المحكمة فحسب ، بل وداخل السجن .

— . . .

— لن تثرثر ! .

— . . .

— انني سأعتبرك منذ هذه اللحظة موظفاً عندي ، وراتبك الشهري يدفع لك ابتداء من اليوم وطول اقامتك في السجن . وحين تغادره ستلتحق برجالي ، فنحن دوماً في حاجة إلى الذين يتقنون استعمال السكين .

— . . .

— إذا لم تنفذ ما أقوله لن يتسنى لك حتى أمر المثول أمام المحكمة . سينشب شجار في السجن بين السجناء وستقتل خطأ في الشجار . لن تعيش لتلطخ سمعتي . والآن اترك لك أن تختار .

— . . .

صفعتان .

— هل اخترت ؟

صفعتان .

— هل اخترت ؟

— أنا « زلمتك » يا بيك ... اخترت ... اخترت ... نسيت اسمك .

وينهار شقيق ياسمينة باكياً .

(للتو استيقظت .

لم تعد الحبوب المنومة تجدي ! اني أتعذب باستمرار وأشعر بأن رجلين يقتتلان داخل جسدي ...

حين جاء نيشان ليأخذني الى السهرة غضب كثيراً . صرخ بي : « فرح . أنظر إلى نفسك في المرآة ! » قال انني كنت أرتدي ملابس النساء وعلى وجهي ماكياج نسائي ! لم أكن قد لاحظت ذلك تماماً ، ولكنني على أي حال لا أدري لماذا أغضبه ذلك ! جاء بطبيب غرس دبوسه في شرياني . تظاهرت بالنوم ولم أكن نائماً . كانـا يتحدثان عني ونيشـان قلق مما يسميه تصرفاتي المجنونة . سرتني على أي حال نبرة القلق في صوته !

ولكنني لم أنم . قضيت الليل وأنا أقتل النمل الذي كان يخرج من وسادتي ليأكلني ...

عاودني ذلك الحادث المؤلم ... انه ليس حلماً كما يدعون ولكنه يحدث لي فعلاً ... أسير على أرض صخرية ثم فجأة تتحول الارض تحت قدمي إلى رمال سائبة ... وشيئاً فشيئاً تبتلعني الرمال المتحركة ... وكل ما حولي خواء وخواء ما عدا لافتة طريق عليها اسم بيروت ... واصرخ واصرخ واصرخ !)

للتو استيقظت .

صوري ، كالعادة ، في أكثر الصحف . مطرب الرجولة فرح ! ها !.. ها !.. صرت أجد صعوبة في القراءة . أعجز عن التركيز . ثم إن أكثر

أخباري في الصحف تتحدث عن أمور لم تقع لي . ان شيئاً لا يحدث لي ، لكن الصحف تتحدث عن غرامياتي وعلاقاتي ! ربما كان نيشان يدبر ذلك . وربما كانت تقع لي وأنسى ! أصبحت كثير النسيان ... اكتفي بمطالعة الصور ... صوري أولاً ...

هذه امرأة مقتولة في بركة دماء جسدها بلا رأس . وهذه صورة المغدورة قبل الموت . لقد شاهدت هذا الوجه ، أين .. أين ؟ مع نيشان في مطعم ما ؟ لا ، ربما كانت تشبهها ! ولكن هذه أكثر نحولاً وأصغر سناً . في « التاكسي » ، أجل ، في « التاكسي » ، في الطريق الى بيروت ، الآن أذكر تماماً . راودني يومها خاطر مضحك : ان أطلبها للزواج وأن نعود إلى دمشق فوراً لتنفيذه ونغض النظر عن بيروت .

أجل . التقينا في « التاكسي » كان ياما كان ... عبثاً أحاول قراءة الخبر ! الحروف تقفز تحت عيني كالبراغيث . العنوان يقول : « مقتل فتاة ... » آه ! لقد أعطتني عنوانها يومئذ ... سأذهب لأخرج في جنازتها ... ولكن أين العنوان ؟ أين العنوان ؟..

ماذا يحدث لي ؟! فلأنهض ولارتد فستاني وثيابي الداخلية الحريرية ، ولاجرب ذلك « السوتيان » ، فأنا أعشق حاملات النهود « الدانتيل » نصف الشفافة ... وسأخرج بحثاً عن جنازتها أو أي جنازة أخرى ، لا فرق !..)

جو العيادة يشبه غرفة في سفينة فضائية ..

« نيشان ، تبدو مضطرباً ! ماذا حدث ؟..

– انه فرح يا دكتور ... لا أدري ماذا دهاه ! يتصرف أحياناً بطريقة عجيبة . يرتدي ملابس النساء ، يستعمل ماكياجهن ! انتابته مؤخراً هواية عجيبة : السير في أي جنازة تمر به دون أن يعرف صاحبها أو أي شيء عنها !.. انه يتحدث مع أشياء عجيبة ، مع السمكة في صحنه مثلاً ، أو مع الدجاجة المشوية !.. اني قلق ... قلق !.. حفلته القادمة بعد عشرين يوماً ، وقد دفعت ايجار المسرح ، والاعلانات مستمرة منذ أكثر من شهر ، وبيعت التذاكر بأكملها ... لقد راهنت على هذا الشاب بالكثير ... وبسمعتي ... ماذا أفعل ؟.

– لا تخشَ شيئاً ! الطب يصنع المعجزات . العواطف كلها مجرد تفاعلات كيميائية ، ولكل عاطفة عقار ...

– انه يبكي أحياناً ويقول انه مكسور الروح !..

– لا يوجد شيء اسمه الروح !.. هناك تفاعلات كيميائية ، وسوف أعطيه العقاقير التي تضمن التفاعل المطلوب ... الانسان عجينة ، والعلم هو الرب . ضع ثقتك في الطب الحديث !..

كـــابوس

بحثت في كل مكان دون جدوى !..

لم أجد عنوان الفتاة القتيل ،رفيقة « التاكسي » يوم جئت إلى بيروت ... كان علي ان أسير في جنازتها ... اعتبرت نفسي أرملاً بطريقة ما ، ما دمت قد فكرت ولو لثانية بالزواج منها ... (ترى هل لها جنازة ام انها في المشرحة ؟!.) لا ... لها جنازة ... ويجب ان تكون كبيرة وفخمة ...

خرجت في الشوارع أفتش عنها ، والغريب انني وجدتها بسرعة ! كان يتقدم الجنازة بعض العازفين على الابواق ... ثم مجموعة من الاطفال والكشافة ... وتحملها سيارة سوداء بطيئة مغطاة بالاكاليل ... وخلفها جمهور كبير من المشيعين . سرت معهم باكياً لاطماً ... سألني أحدهم : « هل أنت ابن المغترب الفقيد العظيم ؟ » كدت اضربه . انها جنازتها هي ... زوجتي لدقائق في الحلم ... ثم فجأة تحولت الموسيقى الجنائزية إلى معزوفة جاز مجنونة .. وخرجت يد من داخل التابوت وبدأت ترمي بالزهور عنه ... ثم انكشف غطاء التابوت وخرجت هي منه ... هي ، توأمي في رحلة بيروت ... وقفت داخل التابوت (تبارك جمالها !...) كانت تفيض حياة وحيوية . وبدأت ترقص ، ولكن أحداً لم يلحظ لانهم كانوا أمواتاً ... كانت تخلع ثيابها قطعة إثر اخرى مثل راقصة « ستربتيز » وترمي بها فوق رؤوس المشيعين ... لم يتنبه لها أحد سواي **(فقد كانوا زرق الوجوه منكسي الرؤوس ... كانوا**

قافلة من الاموات ، وكانت وهي ترقص في تابوتها اكثر حيوية من البحر ... وكنت واثقاً من من انهم حين يصلون الى المقبرة سيهبطون جميعاً إلى حفرهم قبل أن تفوح روائحهم .) وسنهرب معــاً ، أنا وهي ... وانفجرت أضحك عن غباء أولئك الاموات الواهمين انهــم يشيعون ميتة وهم أكثر موتاً منها ! فلينظروا إليها كيف ترقص بكل الفرح الذي يقدر عليه الجسد ... وصرت اضحك اضحــك اضحك ... وأصفق لايقاع رقصتها ...

ضربني أحدهم ورموا بي على الرصيف خارج الجنازة . واختفت هي ... ظل التابوت مفتوحاً وفارغاً ...

* * *

كابوس

قررت انني في حاجة الى فتاة تحبني واحبها . تسكب الضحك على جدراني الموحشة . تغسل بيتي وعيوني بالعذوبة والرقة ...

فيفي سألتني يوم التقينا في نادي الفروسية : « هالو . ما هو برجك ؟ »

قلت لها : « لا أعرف برجي ولكني اعرف اسمي ... » كانت جميلة وصغيرة رغم صوتها النشاز . قالت : « لا يهمني اسمك . المهم هو برمجك . يجب ان أعرف اذا كان يناسبني . اذا كانت ابراجنا تسمح بنمو علاقة بيننا ! » وتابعت مضغ « الشكليتس » بشهية فائقة.

قلت لها أول كذبة خطرت ببالي : « برجي هو السمكة . » ووافقت فوراً على الذهاب معي الى شقتي ، فبرج السمكة هو برجها المفضل ، وهي لا تستطيع مقاومة رجال برج السمكة ، كما انها لا تحب هدر الوقت . اما انا ففي حاجة الى التقاط أنفاسي . أقنعتها بانني مضطر الى المرور بمقهى « الويمبي » لارتباطي بموعد سابق سأعتذر عنه.

ركبت معها في سيارتها السبور ... صوت المحرك مروع ، شرس ، حادّ . صوت المحرك غيمة من العنف والحقد والهباب الاسود . **(اسقط في**

الغيمة ... أكاد اختنق !) تقول ان صوت المحرك يثيرها ... يهيجها ... تمسك بيدي وتدس بها بين ركبتيها . **(تتكسر اوان نحاسية فوق رأسي ... هذا الصخب المسعور ... آه .. اشتهي ان أتمدد في حقل من الحس على صدر انثى ترتجف عذوبـــة وخجلاً ! آه الرقة الرقة !)** تدير هي شريطاً عليه تسجيل لصوت اقلاع سيارتها ولصوت جنون محركاتها . ترفع الصوت حتى آخره ... وتضحك وتبدو لي اسنانها مثل اسنان مصاصات الدماء ... اخاف ... يجلدني الهلع وأبكي ... توقف سيارتها فجأة وتتأملني باهتمام : « وانت ايضاً تنتشي مثلي مع ذروة دوران المحرك ؟ أوه ! » سنكون « كوبل » ثنائياً رائعاً ... احبك .. بالمناسبة ، ما اسمك ؟

في المقهى طلبت الفتاة كوباً من « بلودي ماري » (الفودكا بعصير البندورة) ... شربته برشفة واحدة ، وعادت تلك النظرة القاسية الشيطانية تطل من عينيها وشعرها الاحمر المجعد.. بعد ان انهت كأسها ، أمسكت « الشاليمو » وفي بساطة أدخلت « الشاليمو » في شرياني بدلاً من الكأس ، وبدأت تمتص دمي بـ « الشاليمو » مباشرة ... تمتص تمتص ... وشعرت بالدوار ... وصرخت بها : « انتزعي هذا الشاليمو من عروقي يا مصاصة الدماء ! » تأملتني بدهشة من يرى سرطاناً في كوب حليبه الصباحي ، وتظاهرت بالانزعاج . وبدأت اشتمها : « هل تظنين انك تستطيعين خداعي يا ساقطة ؟!. كل ما تريدينه هو امتصاص دمي ... سأشتري لك ليترات دم من « بنك الدم » ولكن دعيني وشأني !.. »

وهربت منها ، وسمعت أهل المقهى يهمسون : « مجنون ... مجنون ... »

وحزنت لاجلهم . انهم جميعاً مجانين وعميان ... كل ما في الامر انهم لا يلحظون ان حبيباتهم يغرسن « الشاليمو » في شرايينهم لشرب دمهم ... صرخت أنبههم الى ذلك ، لكن زبائن المقهى جميعاً ضحكوا ...

غريب أمرهم في هذه المدينة !.. لقد طردني الجرسونات ، فتابعت جولتي على بقية المقاهي أنبههم الى ذلك ، لكن احداً لم يلتفت إليّ ... أحدهم

تأملني قائلاً : « أليس هذا هو النجم الجديد فرح ؟ » ردت فتاة ترافقه : « غير معقول ، لكنه يشبهه قليلاً ! »

* * *

كابوس

لم يعد في داخلي رجلان يقتتلان . أحدهما قد مات وانتهى الامر ...

في داخلي رجل ميت احمله وأدور به .. انه ليس ميتاً بالضبط . انه يستيقظ احياناً فنبكي معاً ...

شيء غامض في الجنازات يجذبني إليها ... لا أدري لماذا ابحث عنها واسير فيها ؟!.

اليوم شاهدت جنازة مذهلة ... التابوت مغطى بالبياض ، الناس يرقصون في الجنازة ويرتدون الابيض ... كل شيء يلتمع تحت أشعة الشمس والاصوات بدت بيضاء . وخلعت ثيابي كلها لاشارك في الرقصة المذهلة ... ضربوني لانني تعريت وقالوا انني مجنون ! **(لقد ولدت عارياً وسأدفن عارياً وأحب التجول عارياً كسمكة !)**

نيشان اخرجني من مخفر البوليس ، ولم تكن الشمس هناك حين خرجت :

مثير هو عالم الجنازات ! لا توجد جنازة تشبه اخرى ...

ومع ذلك ، كل الجنازات متشابهة بطريقة ما ... يربطها خيط واحد شفاف لا يرى ولكنه قريب منا .. قريب جداً قرب حبل المشنقة من رقبة لف حولها !..

* * *

كابوس

صارت لي صديقة أحدثها ...

اشتريت لها تاجاً من الماس الاصطناعي ومنديل عروس ... وضعت المنديل فوق رأسها وفوق التاج ... وبدت جميلة وساحرة ...

حين جاء نيشان سألني بدهشة : « من اين جئت بهذه الجمجمة ؟.. ولماذا تضع فوق رأسها اكليل عروس وتاجها ؟! »

حاول ان يرمي بها من الشرفة لكنني وعدته بأن افعل ذلك بنفسي .
وانقذت حياتها منه ... وتجاهلت عتابه لي على تصرفاتي « الجنونية » التي ستدمر « مستقبلي » ...

* * *

كابوس

قرر نيشان أن علي ان اذهب الى دكان بائع « البيروكات » لاختيار المناسبة منها لفيلمي الجديد . ورافقني مساعد المخرج « أو شيء من هذا القبيل ! »

كنت هادئاً اتقبل كل أوامر نيشان كعادتي كي اصير ثرياً ومشهوراً مثله... ولكن أمراً غريباً حدث لم يتنبه اليه أحد سواي .

في الدكان ، جاءني بائع « البيروكات » بمجموعة من الرؤوس البشرية المقطوعة التي لا تزال تقطر دماً وقال لي : « اختر الشعر الذي يعجبك !.. الرأس بخمسين ليرة . »

كانت الدموع تغطي وجوههم ... وشفاههم تتحرك دون ان يصدر أي صوت عن حناجرهم المقطوعة ... كانوا يريدون ان يقولوا شيئاً ...

وقال مرافقي : « جرِّب هذه . »

حمل الرأس المقطوع واذا به مجوف من الداخل . ووضعه فوق رأسي وبدأت قطرات الدم البارد . نصف المتخثر ، تسيل على وجهي ..

وبدأت اصرخُ وانطلقت هارباً ... امسك بي صاحب المحل وقال : « اذا لم تعجبك سنحضر لك طلبك .. اعطنا مواصفات أي رأس فنحضره لك . بل حدّد أي رأس يعجبك في الطريق لنحضره لك .. كل رأس له ثمن .. كل شيء ممكن عندنا . »

واستل سكيناً طويلة ، نصلها رفيع يلتمع تحت أشعة الشمس . استعداداً لاحضار رأس أي عابر سبيل يعجبني شعره وأريد اتخاذه « باروكة » لي .

وهــــربت ...

* * *

كابوس

في المطعم كان نيشان يتحدث والمنتج عن ثمني ويحددان لي سعراً ...

على الجدار قرأت هذه العبارة بالانكليزية : « السمكة التي تأكلها اليوم كانت تسبح بالامس . »

سألت نيشان عن المقصود . أجاب ممتعضاً : « المقصود ان سمكهم طازج . »

وعاد إلى حواره : « خمسون ألف ليرة فقط ؟! لا ريب في انك تمزح!. ضرب أرقام السوق في شهر ... انه نجم الغد . »

وجاؤوا بالسمكة امامي . واكتأبت وانا أفكر في انها كانت بالامس فقط تسبح وتحيا ، وان كل لقمة تتطلب جريمة بطريقة ما ... وحين جاؤوا بها في الصحن ، تململت السمكة تحت الليمون والبقدونس الذي غطوها به ، ونهضت ضاحكة تتأملني بعينيها الواسعتين اللتين بلا رموش : « هل ستأكلني حقــاً ؟ »

– لا أدري !..

– ولكنني ما زلت حية ...

– لا أدري !..

– وسعيدة وأرغب في الحياة ... وانت ؟

– لا أدري !..

– احملني وأعدني الى البحر ... هل ستفعل ؟

– لا أدري !..

– لماذا أنت حزين هكذا مثل سمكة مطبوخة في فرن قذر ؟..

– لا أدري !..

– ماذا تفعل هنا ؟

– لا ادري !..

– انك تبدو كسمكة ميتة ... لماذا لا تتمدد في صحني بدلاً مني ؟

ـ لا أدري !..

ـ بالبقدونس سيحشون فمك واذنيك حتى يخرجوه من انفك ، وسيغطونك بصفائح الليمون ، ويمددونك في صحن كبير من الفضة ، ويقدمك نيشان في وليمة كبيرة . هل ترغب في ذلك حقاً ؟..

ـ لا أدري !..

ـ هل ستعيدني إلى البحر ؟..

ـ لا أدري !.. »

* * *

كابوس

توقف السائق أمام حاجز رجال الشرطة . قال الشرطي : « تذاكر ... هويات ... باسبورات !.. » تقدم مني كلب ضخم وبدأ يشمني وهو يشخر بصوت مرعب . تذكرت الضبع في حكايا أمي ... امي ، اين مني امي وقريتي وكل ما كان ؟!. اشعر بأنني شخص آخر ، شخص لا يعرفني ... انا لم أعد اعرف أنا ... كرر الشرطي بقسوة : « تذاكركم » ، وعوى الكلب ، وغمرتني سحابة من الضجيج والقسوة ... أخرجت تذكرتي وتأملتها ... الصورة فيها ضاحكة . هذا ليس وجهي ! فرح ؟ هذا ليس اسمي.! هذه الورقة لا علاقة لي بها !

ومزقتها

لم يفهموا . حملوني الى المخفر . عند الصباح اخرجني نيشان .

* * *

كابوس

استيقظت ووجدت نفسي معلباً داخل علبة « كونسروة » ... جدرانها شفافة لكنني عبثاً استطيع اختراقها ...

حملني نيشان في جيبه وانا داخل العلبة اكاد اختنق ، وذهب بي الى أحد مخازن بيع الالبسة حيث يصورون فيلماً ، وحين وصلنا اخرجني من جيبه

ووضعني على مقعد جلدي جميل . لم أرَ في حياتي كلها مكاناً لبيع الالبسة كهذا المكان ... له « ديكور » قصر ... الجدران الرخام ، والرياش في كل مكان ، والسجاد تغوص فيه الارجل ، والمرايا ... والاضواء .. ولكن بدا لي ان كل شخص سجين داخل علبة « كونسروة » وان احداً لا يسمع الآخر ولا أحد يلمس الآخر ، ومع ذلك يتحدث الجميع في وقت واحد ...

الممثلة جميلة وشبه عارية ... انها تضرب جدران العلبة المحيطة بها ... تضربها بقبضتيها وتصرخ ...

المخرج يصفعها ...

أغمض عيني وأبكي سراً داخل علبتي ...

(لا استطيع احتمال موت الرقة في هذا العالم .)

ساعات انقضت ؟ لا أدري !.. نيشان يقول لي : « أحببت اطلاعك على العمل من الداخل كي تعرف ما يدور حين تقف أمام الكاميرا — للمرة الاولى — قريباً . »

توقف التصوير .

تركوا الاضواء الوحشية مسلطة على وجهي وعلى المكان وبدت الظلال قاسية وحادة وغير انسانية .

خرج أكثر العاملين من المكان ...

فرقعات صغيرة ، ودارت كؤوس الشمبانيا ... شربت كثيراً ... كثيراً ..

تحولنا جميعاً الى كومة واحدة من اللحم العاري . صرنا اخطبوطاً جهنمياً تخرج منه الاذرع والسيقان العارية والآهات ... وكنا نتقلب فوق العدسات الحارة والآلات الحديدية الحادة الاطراف كالسكاكين ...

وكان وجه نيشان قريباً جداً من وجهي ... ملتصقاً بي ... فتحت عيني وحدقت به ووجهه ملاصق لوجهي ... كانت له عين واحدة في منتصف وجهه كغول الاساطير ... وكانت علبة كبيرة واحدة تضمّنا جميعاً ... كنا كعلبة سردين عفنة الاجساد ...

وبدأت اصارع لاخرج ...

وأصرخ : هذي سدوم وعمورية ولكنها معلبة !.

* * *

كابوس

فتحت عيني ... الجدران بيضاء . الاثاث شبه ابيض . انا ممدد في سرير وامامي امرأة ترتدي ثياب الممرضات . كان انبوب مطاطي طويل يخرج من ذراعي متصلاً بكيس المصل . وصوت يهمس : « انهيار عصبي » . اذن أنا في المستشفى . ماذا حدث ؟ ماذا يفعلون بي ؟..

تأملت الممرضة ... تضع قبعة بيضاء ولها رأس خنزير بري ... كل الممرضات لهن رؤوس خنازير أو بنات آوى . ثم جاء الطبيب ووضع سماعتيه على أذنيه الكبيرتين وكان له رأس فيل ...

وبدأت اذكر ما حدث ...

كنت في سيارة ما . اصطدمنا بشيء ما . فتحت عيني وانا انزف وأبكي وكل عضو من جسدي يؤلمني ...

وكان رجل يصرخ : « لا استطيع إدخاله ... لا نقود في جيوبه ولا نعرف هويته ... » واقترب مني وجه يسألني : « ما اسمك ؟ ما اسمك ؟.. » خيل الي انه الطبيب وحاولت ان أتوسل إليه وأستعطفه فلم يخرج صوتي . وهمس في أذني :

« ــ هل معك نقود ؟..

ــ ...

ــ هل تستطيع ان تدفع لي اتعابي اذا عالجتك ؟..

ــ ...

ــ اذا كنت لا تملك نقوداً تركتك تنزف حتى الموت . « معك قرش بتسوى قرش » .

ــ ...

ـ نقود . نقود . هل تفهم ؟..

وأخرج من جيبه ورقة نقدية كبيرة فقأ بها عيني

ثم وجه نيشان ...

تقدمت الممرضة وهي تحمل بحوافرها كيساً من المصل . حين اقتربت مني لاحظت ان كيس المصل هو زجاجة ويسكي . علقتها وبدأ الويسكي يسري الى دمي قطرة قطرة ... وكان الجميع يضحكون بلا مبالاة ... وبدأوا يرقصون ويغنون والطبيب يرمي بسكاكينه ومشارطه في الهواء ، ثم صاروا يتقاذفون اعضاء المرضى التي استأصلوها ... وصرت اصرخ وأحاول انتزاع ابرة مصل الويسكي من ذراعي،لكنهم ربطوني بأمعاء رجل ولفّوها حولي كالحبال ... وقيدوني بها بلا حركة ... وفاحت رائحة كريهة ...

وقبل ان يغمى عليّ شاهدت طبيباً يضاجع ممرضة فوق نقالة العمليات ...

* * *

كابوس

في صالة المزاد العلني اوقفوني عارياً فوق منضدة كبيرة . وأحاط بي رجال كهول ونساء هرمات ، وكان الثراء يتدفق من ثيابهم ومجوهراتهم ونظاراتهم المبعّدة المطعمة بالماس ومباسم سجائرهم العاجية المذهبة الطويلة وقفازاتهم الحريرية . قال نيشان : « عريس لقطة للبيع ... من يشتري لابنته عريس لقطة ؟ مــن تشتري لصقيع شيخوختهــا عريس لقطة وارد قرى سورية ... وشباب وصوت جميل ومستقبل شبه مضمون ؟.. »

لم اكن عارياً تماماً . كنت اغطي نصف وجهي بحجاب جارية مطعم باللؤلؤ ، ومن خصري تدلى شال من الحرير الازرق الشفاف . وقال نيشان مبتهجاً : « على اونا ... على دوي ... بعنا . » رسا المزاد على المغترب المرحوم علوان بك العلوان ...

« مبروك البيعة — همس نيشان في أذني — هذا الزواج دعاية باهرة ... ثم انه سيقويك فنياً ... والدها ثري ومشهور ... شد حيلك ! »

كابوس

المفروض انني الآن رجل متزوج . والمرأة الملتصقة بي في الفراش هي زوجتي وعلي ان ... وان ...

ولا أشعر بأي رغبة ... ولكن ... أمسكت بذراعها . كانت ثقيلة ، وكان الظلام دامساً . وشعرت بالذراع تخرج في يدي .. رميت بالذراع المقلوعة من على الفراش وأمسكت بالذراع الاخرى ... خرجت من الجسد ايضاً ووجدتها في يدي مجرد ذراع فرميت بها من على الفراش ... أمسكت بالرأس وجذبته إليّ في محاولة يائسة مني لامتلاك عروسي فخرج رأسها من جسدها وبقي بين يدي مجرد رأس مقطوع لا دماء فيه .. رميت به من على الفراش إلى الارض ، وكان لسقوطه صوت اجوف كصوت سقوط الاواني الفارغة ، وأمسكت بساقها .. خرجت ساقها بين يدي ... ورميت بها من على الفراش ، وأمسكت الساق الاخرى فخرجت أيضاً من الجسد ...

أمسكت بما تبقى من الجسد وبحثت عن ثدييها ، وكانا بلا حلمتين ، بحثت عن بقية « انوثتها » فلم أجد شيئاً ابداً ، فقررت انه ليس هنالك ما أفعله ونمت . وفي الفجر حين استيقظت وجدت نفسي في الغرفة وحيداً ، وكانت أجزاء عروس لا تزال مرمية حول الفراش على الارض ...

ومع أول خيوط الشمس لاحظت ان عروسي كانت تمثال عرض ازياء للواجهات ... مجرد تمثال عرض ... فلماذا غضب نيشان حين هربت ؟!.

* * * *

كابوس

ليلة حفلتي الغنائية الكبرى ...

الناس يغطون المقاعد والجدران والسقف .. ومذيع يقدمني بألفاظ خرافية ... وانا أطل لاغني ... انا بكل القهر في داخلي ، بكل الحيرة وكل الضياع ... انا أنفجر ..

وبدأت أغني بصدق ، وبدأ الجمهور يضحك ... وانا اغني ... والجمهور يضحك ...

الفرقة الموسيقية تنسحب . نيشان يضرب على رأسه بيديه كلتيهما ...
قالوا انني كنت اعوي مثل كلب مذبوح . لم أغنّ كلمة واحدة ... فقط كنت أعوي واعوي على الجمهور ...

أقسمت له انني كنت أغني ...

لم يصدقني احد . نقلوني الى المستشفى وقالوا أنني مجنون ...

* * *

برد . بـــرد .

برد يخترقني حتى قاع عظامي .

وهذا الشتاء الطويل لن ينتهي ابداً ... ابداً . وها انا قابع في مخبأي منذ لا أدري متى ... اعرف انهم سيبحثون عني في كل مكان ، واذا وجدوني سيضربونني ، سيضربونك يا فرح يا مسكين ، وسيغرسون أنيابهم في القلب تماماً . سألهث كالارنب .

سيدخلونني في الثوب الابيض ويقيدون ذراعي . ينقلونني الى المستشفى كما في المرة الماضية .

سأبكي ، أبكي ، أبكي .

وسيسلطون مياههم الباردة على رأسي ... سيربطونني الى السرير القذر في حمام التعذيب . يحيطون رأسي بقبعة حديدية تخرج منها عشرات الاسلاك . يسلطون كهرباءهم على دماغي ويمنعونني من الغناء ... لا ، لن يأخذوني هذه المـــرة ...

سأقسم لهم انني لست مجنوناً ولكنهم هم المجانين ولن يصدقني احد .

سأقسم لهم بأن كوابيسي حقيقية وتحدث فعلاً ، وتحدث لهم ايضاً . كل ما في الامر هو انهم لا يلحظونها لانهم مشغولون بأشيائهم الصغيرة ولن يصدقوني ...

برد . برد . برد يخترقني حتى قاع عظامي ...

وانا قابع في مخبأي ريثما يحل الظلام وانطلق هارباً الى قريتي . ما تبقى مني عائد الى دوما . اعرف ان شيئاً لن يعود كما كان ، لكنني سأهرب وأعود

الى حضن أمي الارض . يجب ان أظل مختبئاً دونما خوف من كوابيسي . يجب ان أكون حذراً في هربي ، فنيشان مصمم على الانتقام بكل ما تبقى له من نفوذ ومال . انه يريدني في مستشفى المجانين للانتقام مني وتعذيبي ، لا لشفائي . انه هو المريض لانه قادر على التكيف مع مجتمعه المريض ، أما انا فمعافى ، ولذا عجزت عن اكمال شوط الجنون في مسيرة السقوط .

آه يوم جئت الى بيروت كانت قامتي أطول من الليل ، والبحر كله لا يكفيني فراشاً ، وخيمة الظلام المثقوبة بالنجوم كان يخيل الي انها ستضيق عن استيعاب طموحي ... وكل نساء بيروت لن تكفيني ... كل مطاعمها لن تسد جوعي ... كل صحفها لن ترضي غروري .... آه كيف انشطرت ... كيف تناثرت ، وها أنا اليوم الملم نفسي في مخبأي الحقير خلف سقط المتاع ...

لقد انحسرت عني بيروت ، ولفظتني الى الشاطىء صدفة فارغة ووحيدة.. اسمع باستمرار صوتاً ينتحب في داخلي كصوت الصدفة ... آه ... بيروت كيف كيف كيف ؟!:

كابوس

حين هربت من المستشفى كان أول ما فعلته هو اني سرقت عن المدخل لافتتها : « مستشفى المجانين » ...

حملت اللافتة الى مدخل بيروت ، واقتلعت اللافتة التي تحمل اسم « بيروت » . وغرست مكانها اللافتة الاخرى !...

وانفجرت أضحك وانا اقرأ « مستشفى المجانين » ، وخلف اللافتة أطلت بيروت في الفجر مثل احشاء وحش جهنمي يتأهب للانقضاض ... وعدت هارباً الى وكري ...

بدأت كتابتها ٩ تشرين أول ١٩٧٤ .
تمت كتابتها كمسودة يوم ٢٣ تشرين أول ١٩٧٤ الساعة ١١,١٥ .
تمت كل التعديلات وتوقف العمل فيها يوم ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ الساعة ١,٣٠ .

الأعمال غير الكاملة

غادة السمان

صدر منها :

١ ـ	زمن الحب الآخر	الطبعة السادسة
٢ ـ	الجسد حقيبة سفر	الطبعة الرابعة
٣ ـ	السباحة في بحيرة الشيطان	الطبعة الخامسة
٤ ـ	ختم الذاكرة بالشمع الأحمر	الطبعة الخامسة
٥ ـ	اعتقال لحظة هاربة	الطبعة الخامسة
٦ ـ	مواطنة متلبسة بالقراءة	الطبعة الرابعة
٧ ـ	الرغيف ينبض كالقلب	الطبعة الثالثة
٨ ـ	ع . ع . تتفرس	الطبعة الرابعة
٩ ـ	صفارة انذار داخل رأسي	الطبعة الثالثة
١٠ ـ	كتابات غير ملتزمة	الطبعة الثانية
١١ ـ	الحب من الوريد الى الوريد	الطبعة الرابعة
١٢ ـ	القبيلة تستجوب القتيلة	الطبعة الثانية
١٣ ـ	البحر يحاكم سمكة	الطبعة الثانية
١٤ ـ	تسكع داخل جرح	

منشورات غادة السمان

بيروت ـ لبنان ص . ب : ١١١٨١٣

تلفون ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠

مؤلفات غادة السمان الأخرى

- عيناك قدري — الطبعة العاشرة (قصص)
- لا بحر في بيروت — الطبعة التاسعة (قصص)
- ليل الغرباء — الطبعة الثامنة (قصص)
- رحيل المرافىء القديمة — الطبعة السابعة (قصص)
- حب — الطبعة التاسعة
- بيروت ٧٥ — الطبعة السادسة (رواية)
- اعلنت عليك الحب — الطبعة التاسعة
- كوابيس بيروت — الطبعة السابعة (رواية)
- ليلة المليار — الطبعة الثانية (رواية)
- غربة تحت الصفر — الطبعة الثانية
- الاعماق المحتلة — الطبعة الثانية
- أشهد عكس الريح — الطبعة الثانية

منشورات غادة السمان

بيروت ـ لبنان ص . ب : ١١١٨١٣

تلفون ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠





□ إن ظلم الأقدار يتحد بالظلم الاجتماعي، ولا خلاص إلا بإرادة الإنسان وفعله الثوري لتغيير حياته. هذه هي ميزة غادة السمان الفكرية الأساسية: الوعي الوجودي للأزمة الإنسانية المعاصرة وانعكاساتها على الأزمة العربية المعاصرة، كأفراد وكمجتمع.

ـ رياض عصمت

□ تقنية غادة السمان في هذه الرواية متقدمة جداً.

ـ عبد الرحمن مجيد الربيعي

□ الحدث الروائي في «بيروت ٧٥» هو مجموعة أفعال متقاطعة متداخل لوحاتها، وهو حدث عادي وبسيط، إلا أن عظمة الرواية تتجلى في مزج الواقع بالحلم، والمعقول باللامعقول، والمصادفة بالقصد، والوجدان الفردي بالوجدان الجمعي، والحياة بالموت.. في جدلية محمومة، في مفارقة تقلب منطق الوعي، حيث الأحياء موتى والموتى أحياء، ويلوِّن من العبث، حيث يصبح الجنون عقلاً والعقل جنوناً.

ـ عبد اللطيف الأرناؤوط

□ غادة السمان أبعد ما تكون عن توظيف الجنس للإثارة، لأن القضية عندها في كل حدث درامي تفرض نفسها بأساسية، وليس كعادة من يدافع عن كرامة المرأة والقيم الإنسانية دفاعاً عطفاً. الحرية عند غادة السمان ليست انفلاتاً. إنها مسؤولية ووعي وممارسة وإدراك.

ـ عبد الله الشيتي

□ ولقد كانت رواية غادة السمان ـ الأولى والكبيرة ـ أسطورة النبوءة. فأضافت إلى الرواية العربية الحديثة رصيداً ثميناً بالتجربة والمعاناة إلى حد الاحتراق. كما أضافت إلى معنى الالتزام والثورة صياغة جمالية ثرية إلى حد التنبؤ.. لقد انتهت غادة السمان من كتابة هذه الرواية في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٤. ولم تكد تمضي خمسة أشهر حتى اندلع الجحيم اللبناني من تحت الرماد الأزرق.

ـ غالي شكري

منشورات غادة السمان